من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية
في ضوء النظم القرآني
دراسة بلاغية تحليلية تأملية

إعـداد

دكتورة/ هبة إسماعيل حسن إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بالزقازيق- جامعة الأزهر -مصر

١٤٤٥ هـ- ٢٠٢٤م

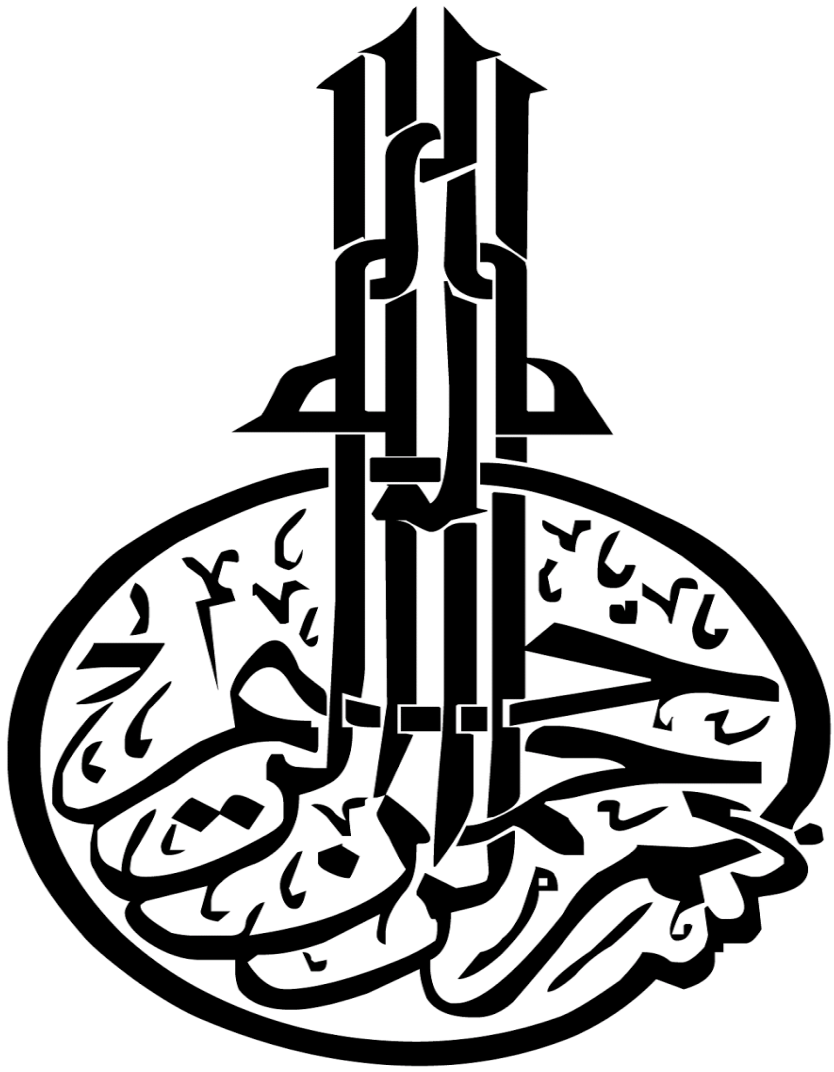

من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية في ضوء النظم القرآني
دراسة بلاغية تحليلية تأملية

هبة إسماعيل حسن إبراهيم
قسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق – مصر.
البريد الإلكتروني:
Hebaismail.67@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

ارتكز البحث علىٰ بيان أوجه الإعجاز البلاغي، ومواطن الجمال لتراكيبه، وألفاظه، واستظهار بعض أسرار النظم القرآني، وتسليط الضوء علىٰ الآيات القرآنية التي بينت صور العطايا الربانية للأمة المحمدية، وبيان الصور البلاغية التي اشتملت عليها تلك الآيات، واقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد علىٰ المنهج التحليلي الاستنباطي التأملي؛ ذلك لأنها قامت علىٰ تحليل كل مكونات هذه النصوص المباركة؛ لمحاولة استنباط ما تفيض به من أسرار تعبيرية ودقائق أسلوبية، فقد قمت بجمع الآيات القرآنية التي تتلاقي في مقام واحد في مبحث علىٰ حدة، وتحليلها بلاغيًا، وتقسيم الآيات علىٰ حسب السياق المتصل بالبحث مبينة أسرار النظم، وبلاغته في صور العطايا الربانية للأمة المحمدية، ثم بما يتعاضد معه من أساليب بلاغية مختلفة لبيان ما تضمنه النص القرآني الحكيم من دلالات، ودقائق بلاغية جلّت المعنىٰ المراد في صورة جمالية، وختم البحث بأهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة ومنها: حفل القرآن الكريم بالعديد من النصوص التي تحدثت عن العطايا الربانية للأمة المحمدية، وكشفت الآيات – محل الدراسة– عن الخصائص التي اختصت بها الأمة المحمدية في شريعتها وكتابها، وذاتها، ونبيها، وأفضليتها علىٰ سائر الأمم، وأثبتت الدراسة أن لكل عطية من هذه العطايا طابعًا

بلاغيًا خاصًا يبرزها، ويكشف عنها، وجاء متناغما مع السياق، والمقام الذي ورد فيه، وبدت الآيات المذكورة مترعة بالظواهر البلاغية التي احتضنت المعاني من مجازٍ، واستعارة، وكناية، وسَجْعٍ تكاملت في تعبيرات قرآنية لأرفع درجات البلاغة من غاية الحسن والتصوير، ولاسيما الاستعارة القرآنية باختيار كلمة منتقاة مختارة لتحقيق روعة النظم.

الكلمات المفتاحية: العطايا الربانية، من صور النظم القرآني، الأمة المحمدية، تحليلية تأملية.

From pictures of the divine gifts to the nation of) *(Muhammad in light of the Qur'anic systems (Reflective, rhetorical, analytical study)*

Heba Ismail Hassan Ibrahim
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Zagazig , The Egyptian Arabic Republic .
Email: Hebaismail.67@azhar.edu.eg

Research Summary

The research was based on explaining the aspects of the rhetorical miracle, the beauty of its compositions and words, highlighting some of the secrets of the Qur'anic systems, shedding light on the Qur'anic verses that showed images of the divine gifts to the nation of Muhammad, and explaining the rhetorical images contained in those verses. The nature of the study required reliance on the deductive analytical approach. contemplative; This is because it was based on an analysis of all the components of these blessed texts.

To try to extract the overflowing expressive secrets and stylistic subtleties, I collected the Qur'anic verses that converge in one place in a separate topic, analyzed them rhetorically, and divided the verses according to the context related to the research, explaining the secrets of the systems and its eloquence in the images of the divine gifts to the Muhammadan nation, then with He cooperates with various rhetorical methods to clarify the connotations contained in the wise Qur'anic text, and rhetorical subtleties that clarify the intended meaning in an aesthetic form. The research concludes with the most important results that the study yielded, including: The Holy Qur'an celebrates many texts that spoke about the divine gifts to the Muhammadan nation, and revealed the verses. - The subject of the study - about the characteristics that distinguished the Muhammadan nation in its law, its book,

itself, its prophet, and its superiority over all other nations. The study proved that each of these gifts has a special rhetorical character that highlights it and reveals it, and it was in harmony with the context and the position in which it was mentioned.

The aforementioned verses seemed full of rhetorical phenomena that embraced meanings of metaphor, metaphor, metonymy, and assonance, integrated into Qur'anic expressions of the highest levels of eloquence of the utmost beauty and imagery, especially the Qur'anic metaphor by choosing a selected word chosen to achieve the splendor of the systems.

Keywords: divine gifts, from images, Quranic systems, the Muhammadan nation, analytical and contemplative.

المقدمة

الحمد لله الذي أجزل لنبينا محمد -ﷺ- في العطايا، ومنحه من العلوم والغيوب والخصائص ما لا حد لها ولاغاية، وفضل هذه الأمة علىٰ سائر الأمم، وميزها بجليل النعم، والصلاة والسلام علىٰ خير البرية، وهادي البشرية، اصطفاه ربه – تعالىٰ–، وفضله علىٰ النبيين والمرسلين – صلىٰ الله وسلم عليه –، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

فقد آثَرَ رسوله بكتاب نزل بأفصح لسان وأحسن بيان، وتحدىٰ به قوما ملكوا ناصية الفصاحة وفنون الكلام، وعجزوا عن الإتيان بمثله أو آية منه، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء:٨٨]. وبهر القرآن هؤلاء بحسن نظمه وترتيبه، وإحكام أساليبه وما فيه من حجة وبرهان؛ فهو بحر زاخر باللؤلؤ والمرجان.

وفي القرآن الكريم عدد من الآيات تبرز هذه العطايا بصورة جلية، وكان هذا في أسلوب بلاغي رائع يأخذ بمجامع القلوب، والعقول، مما أغراني بدراسة هذا الموضوع، فاستعنت بالله – تعالىٰ–، وجعلته بعنوان : **من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية في ضوء النظم القرآني. دراسة بلاغية تحليلية تأملية.**

ومما دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب، من أهمها–:

١– تعلق الدراسة بالقرآن الكريم الذي هو المعجزة الخالدة.

٢– لم أجد في مكتبة الدراسات البلاغية مثل هذه الدراسة المستقلَّة – فيما أعلم.

أهداف البحث-:

١- بيان أوجه الإعجاز البلاغي، ومواطن الجمال لتراكيبه، وألفاظه، واستظهار بعض أسرار النظم القرآني، وهو يتحدث عن هذا الموضوع المهم.

٢- تسليط الضوء علىٰ الآيات القرآنية التي بينت صور العطايا الربانية للأمة المحمدية.

٣- كثرة الصور البلاغية التي اشتملت عليها تلك الآيات كثرة تلفت الأنظار، فأردت الوقوف عليها مبينةً أسرارها البلاغية.

٤- نيل شرف الانتساب إلىٰ بستان الدراسات القرآنية.

أهمية البحث:-

١- إنَّ مثل هذا النوع من الدراسات لبعض الآيات القرآنية يؤدِّي بالضرورة إلىٰ الكشف عن مزايا النَّظم القرآني عن طريق ما يحويه من لطائف بيانية دقيقة،يتميَّز بها النظم المذكور عن غيره.

٢- إنَّ الدراسة المذكورة أنموذج طيِّب لتوظيف البلاغة في الكشف عن البلاغة العُليا في النَّص القرآني.

واقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد علىٰ **المنهج التحليلي الاستنباطي التأملي**؛ ذلك لأنها قامت علىٰ تحليل كل مكونات هذه النصوص المباركة؛ لمحاولة استنباط ما تفيض به من أسرار تعبيرية ودقائق أسلوبية، فقد قمت بجمع الآيات القرآنية التي تتلاقىٰ في مقام واحد في مبحث علىٰ حدة، وتحليلها بلاغيًا، وتقسيم الآيات علىٰ حسب السياق المتصل بالبحث مبينة أسرار النظم، وبلاغته في صور العطايا الربانية للأمة المحمدية، ثم بما يتعاضد معه من أساليب بلاغية مختلفة لبيان ما تضمنه النص القرآني الحكيم من دلالات، ودقائق بلاغية جلّت المعنىٰ المراد في صورة جمالية.

وقد كان عملي في هذا البحث على النحو الآتي:

١- قراءة النَّص القرآني قراءة تأمُّلية دقيقة،متناولةً الآيات الكريمة آية آية تناولاً من خلال التَّذوُّق الفني،مستعينةً باللطائف البلاغية المُختلفة التي تكشف عن أسرار النَّص القرآني.

٢- مثابرة التَّدبُّر البياني لكل آية علىٰ حدة،من خلال النظر في سياقها ومقامها الذي وردت فيه، وتحليلي للآية الكريمة يكون بما يُفسِّرها من القرآن أو السُّنة النبوية الصحيحة،أو منهما معـًا،أو بما ورد في أسباب نزول الآية.

٣- إلقاء الضوء، واستدعاء الهمَّة في الكشف عمَّا يتعلَّق بالدقائق والخفايا والأسرار الخاصة بعلم المتشابه اللفظي لبعض الآيات القرآنية، والدِّلالة علىٰ أنَّ الإعجاز القرآني يتكشَّف لنا من خلال إيثار لفظة علىٰ أُخرىٰ،أو حرف علىٰ آخر،ومن مراعاة الفروق الدقيقة بين الألفاظ؛ باعتبار أنَّ القرآن الكريم يختار من الألفاظ ماهو أقوىٰ دلالة علىٰ المعنىٰ المُراد، بحيث لو استُبدل لفظ أوحرف بآخر لاختلَّ المعنىٰ،وضاع المراد منه، ومثل ذلك يُقال في الجمل القرآنية،وفي موضع الحذف والذكر، وفي الفواصل القرآنية، حيث إنَّ كُلَّ كلمة وكُلَّ حرف،بل كُلَّ جملة في القرآن الكريم متمكِّنةٌ في موضعها،غير قلقة ولا نابية ولا مضطربة،ولكنَّها مناسبة لسياقها،ملائمة مع الغرض الذي سيقت من أجله والموقف الذي يتطلَّبها؛ ومن ثمَّ فهي تتجلَّي آثارها في النظم؛لإحداث التأثير المطلوب في نفس المتلقِّي.

هذا وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين متبوعين بخاتمة، وتوصيات الدراسة ثم ثبت لأهم المصادر والمراجع، وفهرسـًا للموضوعات.

أما المقدمة فقد تضمنت الحديث عن أسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث، وأهميته، وخطته، والمنهج الذي انتهجته في هذه الدراسة.

وأما التمهيد فقد جاء بعنوان: مكانة العطايا الربانية للأمة المحمدية في القرآن الكريم، وجاء ذلك في:

أولًا: تعريف العطية في اللغة، والاصطلاح.

ثانيًا: تعريف الأمة في اللغة، والاصطلاح.

ثالثًا: تعريف الأمة المحمدية.

رابعًا: من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية.

وأما المبحث الأول فجاء بعنوان:

من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في الشريعة، والكتاب في ضوء النظم القرآني، وقد اشتمل علىٰ خمسة شواهد.

وأما المبحث الثاني فجاء بعنوان:

من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها في ضوء النظم القرآني، وقد اشتمل علىٰ خمسة شواهد.

وقد راعيت في ترتيب هذه المباحث الترتيب المصحفي للآيات، بادئة بالسابق ثم اللاحق.

وأعقبت ذلك بخاتمة اشتملت علىٰ أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وتوصيات الدراسة،

وأما الفهارس: فقد ذيلت هذا البحث بثبت لأهم المصادر والمراجع، وتلاه فهرسًا للموضوعات.

وعمادي في هذا البحث – بعد توفيق الله – مصنفات البلاغيين، والاستضاءة بكتب التفسير وما يجلّي المعنىٰ، ويحقق الهدف؛ مع إضافات تتناسب مع سياقات نظم الآيات.

وأرجو أن تكون هذه الدراسة إضافة جديدة إلىٰ حقل الدراسات البلاغية القائمة علىٰ تذوق النظم القرآني، ولهذا الغرض وعلىٰ الله قصد السبيل، وهو ولي التوفيق.

التمهيد: مكانة العطايا الربانية للأمة المحمدية في القرآن الكريم.

أولًا: تعريف العطية في اللغة والاصطلاح.

-المعنى اللغوي

العَطِيَّةُ: اسْمٌ لِما يُعْطىٰ، مَأْخُوذٌ مِن العَطْوِ، وهو: التَّناوُلُ، يُقال: عَطا الشَّيْءَ، وعَطا إِليه، عَطْواً: إذا أَخَذَهُ وتَناوَله، وضِدُّه: المَنْعُ والأَخْذُ.

وأَصْلُ الكلِمَة يَدُلُّ علىٰ المُناوَلَةِ والدَّفْعِ، والمُعَاطاة: المُناوَلة، والعَطِيَّةُ والإعْطاءُ: مَنْحُ الشَّيْءِ لِلْغَيْرِ، يُقال: أَعْطاهُ مالاً: إذا مَنَحَهُ إِيَّاهُ.

ويأتي بِمعنىٰ التَّمليكِ والبَذْلِ، والجَمْعُ: عَطايا وأَعْطِيَةٌ، وأُعطِياتٌ جَمعُ الجَمعِ(١).

والعطيَّةُ لُغةً: الإيتاءُ بمحْضِ التَّفضيلِ، والعطاءُ اسمٌ لِما يُعطَىٰ، وجمْعُها العطايا(٢).

---

(١) يُراجع: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام هارون، (٤/ ٣٥٣). دار الجيل، بيروت. د.ط.ت، مادة (عَطًا)، والمبسوط، المؤلف: السرخسي شمس الدين، (١٢/ ٩٤) دار المعرفة – بيروت (١٤٠٩ هـ =١٩٨٩م)، و شرح الخرشي علىٰ مختصر خليل، المؤلف: أبو عبد الله محمد الخرشي، ٧/ ١٠٢، الناشر: المطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق مصر، الطبعة: الثانية، ١٣١٧ هـ.

(٢) يُراجع: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفىٰ: (٣٧٠ هـ،ت: محمد عوض مرعب، (٣/ ٦٥) دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠١م، ومختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦ هـ) ت: يوسف الشيخ محمد، (ص: ٢١٢)، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م، و تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضىٰ الحسيني الزَّبيدي،(٣٩/ ٦٢،٦٣) مادة (عَطًا) (١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م).

-المعنى الاصطلاحي:

العطيَّةُ اصطلاحًا: تأْتي بمعْنىٰ الهِبةِ، وهي تَمليكُ مُتَمَوَّلٍ بغيرِ عِوَضٍ، وخصَّها بعض الفُقهاءِ بالتبرُّعِ بالمالِ في مرَضِ الموتِ المَخُوفِ(١) .

ثانيًا: (تعريف الأمة في اللغة والاصطلاح):

الأمة في اللغة: هي القرن من الناس، والصنف منهم وغيرهم.

و(الأمة) في الاصطلاح: عبارة عن جماعة من الناس، يرتبط أفرادها بروابط معينة، مثل: اللغة، أو التاريخ، أو الجنس، أو الدين...من ناحية، والمصالح المشتركة، والغايات الواحدة من ناحية أخرىٰ(٢).

ثالثًا: (تعريف الأمة المحمدية):

إنها أمة القرآن، أمة الإسلام، أمة محمد -ﷺ- هذه الأمة التي فضلها الله -عزوجل- علىٰ سائر الأمم واختصها بكرامات كثيرة في الدنيا ليست لغيرها، وإنما نالت من ذلك مانالته باتباعها لرسولها محمد -ﷺ.

---

(١) يُراجع: بدائع الصنائع للكاساني، (٦/ ١١٦)، والمطلع علىٰ ألفاظ المقنع للبَعْلي، (ص: ٣٥٢)، والمبدِع لبرهان الدِّين ابن مُفلِح، (٥/ ٢٧٥)، ومواهب الجليل للحطَّاب، (٨/ ٣)، والشرح الممتع لابن عُثيمين (١١/ ٦٥).

(٢) يُراجع: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (١/ ٢١)، وتأويل مشكل القرآن، تأليف: أبومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ ه) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (ص: ٢٤٨)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ط.ت، و لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٧)- ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ ه – ١٩٩٥ م.

رابعًا: من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية:

تتسم الأمة المحمدية بالهبات الربانية العظيمة التي تظهر في القرآن الكريم، حيث أُرِيَتْ الهمم الإلهية في رفع الحرج عنهم وتفضيلهم بمكانة خاصة.

تجلت هذه الهبات في عدة جوانب، منها:

رفع الحرج في التشريع.

يتجلىٰ تأليف الله للأمة المحمدية في تشريعاتها، حيث أُنزلت الآيات القرآنية لتسهيل الأمور وتخفيف العبء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج:٧٨]، مؤكدًا رغبته في تسهيل الأمور لاتباع الإسلام.

معجزة القرآن الكريم وحفظ المولى – عزوجل- لكتابه العزيز.

يعتبر القرآن الكريم معجزة خالدة للأمة المحمدية، حيث يحمل في آياته الإرشاد والهدىٰ، ووعد الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر:٩]، مما يُبرز رعاية الله لكتابه والتزامه بحمايته من التحريف.

تفضيل الأمة المحمدية على سائر الأمم.

في القرآن، تبرز قوانين الله التي تفضل الأمة المحمدية وتميزها بأحكامها وتوجيهاتها، ومن بين هذه القوانين، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١١٠﴾ [سورة آل عمران:١١٠]. مُعلِنًا تفوقهم في تقديم الخير ورفض الشر.

خاتم النبيين محمد – ﷺ-.

لقد أفاض الله -ﷻ- علىٰ رسوله ونبيه -ﷺ- بخصائص كثيرة، وأكرمه بإكرامات جليلة، مما يدل علىٰ عظيم قدره وعلو منزلته عند ربه، ومن ذلك أنه خاتم النبيين وسيد المرسلين، فلا نبي بعده، قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن

رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

معجزة الإسراء والمعراج.

معجزة الإسراء والمعراج هي إحدىٰ الأحداث الفريدة في حياة النبي محمد -ﷺ-، وتعتبر من العطايا الربانية التي حدثت خلال رحلة الإسراء والمعراج.

والإسراء هي الرحلة الليلية التي قام بها النبي من مكة إلىٰ القدس، والمعراج هو الصعود من القدس إلىٰ السماء.

إن قصة الإسراء ذكرها الله – تعالىٰ- في سورة الإسراء، والمعراج خلد الله لنا ذكراه في سورة النجم، وهما من المعجزات العظيمة التي اختص بها النبي -ﷺ- لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء، كما لم يقع مثلها لأحد منهم، وهما من تفضيل الله لنبيه -ﷺ-.

وتعد هذه المعجزة من اللحظات الخاصة والمهمة في حياة النبي-ﷺ-، وقد وردت بشكلٍ موجز في القرآن الكريم في سورة الإسراء،قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء: ١].

وتكشف لنا سورة النجم الصورة الحقيقية عن حادثة المعراج، وتصف لنا ما وقع لرسول الله -ﷺ- في الرحلة السماوية من المعجزات الكبيرة، وصفها الله – تعالىٰ- بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النجم:١٨]،. وهذا يعلمنا أن للرسول -ﷺ- إسراءً ومعراجًا، وهما في ليلة واحدة قبل الهجرة النبوية إلىٰ المدينة بنحو ثلاث سنوات أو سنة ونصف.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة النجم: ١٣ -١٨].

ولم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأىٰ فيه رسول الله -ﷺ- الآيات الكبرىٰ، وتجلىٰ له ملكوت السموات، والأرض مشاهدة، عيانـًا؛ بل – زيادة إلىٰ ذلك – اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية علىٰ معانٍ دقيقة كثيرة، وإشارات حكيمة بعيدة المدىٰ فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه (الإسراء)، و(النجم): أن محمداً -ﷺ- هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه، وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصىٰ، وصلىٰ بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانا بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النبي -ﷺ-، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها، وآمنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب، والأمم.

معجزة شق صدر النبي – ﷺ-.

تُعتبر من الأحداث الفريدة في حياة النبي محمد -ﷺ-، وهي جزء من معراجه الليلي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الشرح: ١-٤].

تفيد التقاليد الإسلامية أنه خلال هذا الحدث، تم فتح صدر النبي-ﷺ- وتنظيف قلبه ووضع الإيمان والحكمة فيه.

وفي نهاية المطاف، تعتبر هذه العطايا مصدر إلهام وتوجيه للمسلمين في حياتهم اليومية، وتظهر العظمة والرحمة الإلهية التي تتجلىٰ في الإسلام كدين وسلوك حياة.

وقد آن لي أن أستمدَّ من الله ﷻ العون والتوفيق، لتجلية بعض مُراداته – سبحانه – فيما ورد من تلك العطايا، وذلك من خلال إنعام النَّظر، والتَّدَبُر في الآيات التي تضمَّنتها، لاستظهار بعضٍ من أسرارها البلاغية، بحسب ما يفتح الله به علينا، وبما يرزقنا من الفهم، سائلةً إيَّاه – سبحانه – أن يمنحنا العون والعزم، والسَّداد في القول، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يُهيِّئَ لنا من أمرنا رَشَدَاً ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [سورة البقرة: ٣٢].

المبحث الأول:

(من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في الشريعة، والكتاب في ضوء النظم القرآني)

ويشتمل على:-

الصورة الأولى:

(في مقام رفع الحرج في التشريع والتخفيف عنهم).

الصورة الثانية:

(في مقام معجزة القرآن الكريم، وحفظ الله – تعالى- له).

المبحث الأول:

من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في الشريعة والكتاب في ضوء النظم القرآني

توطئة

يظهر تأثير القرآن والشريعة واضحًا في تشكيل حياة المسلمين وتوجيههم نحو الخير والعدل والتقوىٰ، ولذلك يعتبران من الهدايا الإلهية لأمة محمد-ﷺ-.

ورفع الحرج عن الأمة المحمدية في التشريع يُعتبر من أهم الأهداف التي يسعىٰ إليها الإسلام، ويتم ذلك من خلال عدة آليات وتوجيهات في الشريعة الإسلامية، منها:

١- **المرونة في الشريعة**: يتضمن التشريع الإسلامي درجة كبيرة من المرونة والتنوع لتناسب مختلف الظروف والأحوال التي قد يواجهها المؤمنون.

فالشريعة الإسلامية تتيح الاجتهاد في حل المسائل وتوظيف مبادئها العامة لتتناسب مع الزمان والمكان والظروف.

٢- **الرحمة والتسامح**: يحث الإسلام علىٰ الرحمة والتسامح في التعامل مع الآخرين، ويدعو إلىٰ معالجة الأمور بروح الإحسان والتواضع، مما يخفف من الضغوط والحرج علىٰ الأفراد والمجتمعات.

٣- **تسهيل العبادات**: يسعىٰ الإسلام إلىٰ تسهيل العبادات وتخفيف العبء عن المؤمنين، وذلك من خلال تبسيط الشروط والأحكام، وتقديم التسهيلات في أداء الطقوس الدينية.

٤- **العدل والمساواة**: يؤمن الإسلام بأن العدل والمساواة أساس في بناء المجتمعات السليمة، وبالتالي يعمل علىٰ رفع الحرج عن الناس من خلال تحقيق العدل في كل المجالات.

٥- **الاهتمام بالفقراء والمحتاجين:** يدعو الإسلام إلىٰ رعاية الفقراء والمحتاجين وتقديم الدعم لهم، وذلك لتخفيف الحرج عنهم وتمكينهم من العيش بكرامة.

وبالجملة فإن الشريعة الإسلامية تحرص علىٰ رفع الحرج عن الأمة المحمدية من خلال توجيهاتها الشاملة التي تسعىٰ إلىٰ تسهيل الأمور وتخفيف العبء عن المؤمنين، وذلك بالاعتماد علىٰ مبادئ الرحمة، والعدل، والتسامح، والمساواة.

- ومن بين العطايا الربانية البارزة للأمة المحمدية تأتي معجزة القرآن الكريم وحفظ الله - تعالىٰ - له بكامله، وهذا يُعَدُّ من أعظم الآيات التي تبرز عظمة الدين الإسلامي وصدق رسالته.

وإن حفظ الله لكتابه المقدس، القرآن الكريم، من التحريف والتغيير هو إحدىٰ المظاهر البارزة للعناية الإلهية برسالته وحمايتها من التبدل والتحريف.

وتُعَدُّ معجزة القرآن الكريم واحدة من أعظم الآيات التي تبرز عظمة الرسالة النبوية، إذ يتميز القرآن بالعديد من الجوانب المعجزة التي تتنوع بين الأسلوب الفريد في اللغة العربية، والتنبؤ بالأمور الغيبية، والتشبيه بين الظواهر الطبيعية والمعاني الروحية.

ومن جوانب معجزة القرآن الكريم هو أسلوبه الفريد في اللغة العربية، فهو يتميز بالبلاغة والإيجاز والدقة، وهذا يجعله لا يُشابه في أي لغة أخرىٰ.

بالإضافة إلىٰ ذلك، يحتوي القرآن علىٰ رموز دالة علىٰ الحكمة الإلهية والعلم الكامل.

أما حفظ الله - تعالىٰ- للقرآن الكريم فيعكس العناية الإلهية بكتابه المقدس وتأكيده علىٰ صدق رسالته.

فالله -ﷻ- قد وعد بحفظ القرآن من التحريف والتغيير، كما قال – تعالىٰ-:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر:٩].

تلك العناية الإلهية بحفظ القرآن الكريم تعتبر دليلاً قاطعًا علىٰ حقيقة صدق الرسالة الإسلامية، وتعزز الإيمان لدىٰ المؤمنين بأن رسالة الإسلام هي الطريق الصحيح والمستقيم.

ومن ثم، يجب علىٰ أتباع الإسلام أن يتلمسوا هذه العظمة والحفاوة في معجزة القرآن الكريم وحفظه الإلهي، وأن يستمروا في تدبر وتعلم كلام الله لينعموا بالهداية والرشاد في حياتهم.

الآيات موضع الدراسة-:

الآية الأولى:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

الآية الثانية:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

الآية الثالثة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٩].

الآية الرابعة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[سورة الحجر: ٩].

الآية الخامسة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[سورة الإسراء: ٨٨].

وسوف يتناول المبحث الأول الآيات - موضع الدراسة- بالشرح والتحليل، والوقوف علىٰ أسرارها البلاغية في ضوء النظم القرآني، وقد تآزرت الفنون، ولَبِس كُلٌّ منها ثوبًا من الصِّياغة والنَّظم المُعجز الذي يجعله في أعلىٰ درجات البلاغة

والإعجاز، وكُلُّ هذا هو ما سأحاول – إن شاء الله – قدْر استطاعتي الاعتناء بإبرازه، والكشف عنه بتأمُّل في الصفحات الآتية.

الصورة الأولى: (في مقام رفع الحرج في التشريع والتخفيف عنهم).

ومن الآيات القرآنية المباركة التي تناولت ذلك :

الآية الأولى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٧].

جاءت الآية في سياق التعقيب علىٰ أنه أعفىٰ المريض والمسافر من الصيام، ورخص الله –تعالىٰ– الإفطار لمن كان مريضا، أو مسافرا، وشرع قضاء ما أفطره؛ لأنه يحب أن يخفف عن المؤمنين، ويسهل عليهم أحكامه.

وإثبات صفة الإرادة لله – تعالىٰ–، والمراد بها هنا: الإرادة الشرعية، وهي بمعنىٰ المحبة.

– مناسبة قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾لما قبله:

ولما رخص ذلك علل بقوله: (يُرِيدُ ٱللَّهُ) أي الذي لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره (بِكُمُ ٱلْيُسْرَ) أي شرع السهولة بالترخيص للمريض والمسافر وبقصر الصوم علىٰ شهر (وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) في جعله عزيمة علىٰ الكل وزيادته علىٰ شهر.

وبالرجوع إلىٰ علماء التفسير نجد أنه وقع خلاف بين العلماء في ذلك.

واليسر عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم، والعسر ما يجهد النفس ويضر الجسم.

وقال: فيه إعلام برفق الله بالأجسام التي يسر عليها بالفطر، وفي باطن هذا الظاهر إشعار لأهل القوة بأن اليسر في صومهم وأن العسر في فطر المفطر، ليجري الظاهر علىٰ حكمته في الظهور ويجري الباطن علىٰ حكمته في البطون، إذ لكل آية منه ظهر وبطن، فلذلك والله -ﷻ- أعلم.

كان النبي -ﷺ- يصوم في رمضان في السفر ويأمر بالفطر وكان أهل القوة من العلماء يصومون ولا ينكرون الفطر.

وإذا اختلف عليك أمران فإن أيسرهما أقربهما إلىٰ الحق لهذه الآية(١).

واختلفوا في أفضل الأمرين فقالت طائفة الفطر في السفر أفضل من الصوم روي ذلك عن ابن عمر وإليه ذهب سعيد بن المسيب والشعبي وذهب قوم إلىٰ أن الصوم أفضل وروي ذلك عن معاذ بن جبل وأنس وبه قال إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقالت طائفة أفضل الأمرين أيسرهما عليه لقوله تعالىٰ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وهو قول مجاهد وقتادة وعمر بن عبد العزيز ومن أصبح مقيما صائما ثم سافر في أثناء النهار لا يجوز له أن يفطر ذلك اليوم عند أكثر أهل العلم وقالت طائفة له أن يفطر وهو قول الشعبي وبه قال أحمد أما المسافر إذا أصبح صائما فيجوز له أن يفطر بالاتفاق والدليل عليه ما أخبر عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم

(١) وهذا رأي الإمام الحراليُّ (ت ٦٣٧ هـ) الذي أَكْثَرَ البقاعي من النقل عنه، يُراجع: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي، (٦٢/ ٤٤٨)، دار الأندلس للنشر والتوزيع – جدة، ط: الثانية، (١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م).

أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن رسول الله -ﷺ- خرج إلىٰ مكة عام الفتح في رمضان فصام حتىٰ بلغ كراع الغميم فصام الناس معه فقيل له يا رسول الله إن الناس قد شق عليهم الصيام فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون فأفطر بعض الناس وصام بعضهم فبلغه أن ناسا صاموا فقال أولئك العصاة.

واختلفوا في السفر الذي يبيح الفطر فقال قوم مسيرة يوم وذهب جماعة إلىٰ مسيرة يومين وهو قول الشافعي -رحمه الله- وذهب جماعة إلىٰ مسيرة ثلاثة أيام وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي قوله تعالىٰ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ بإباحة الفطر في المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ قرأ أبو جعفر العسر واليسر ونحوهما بضم السين وقرأ الآخرون بالسكون وقال الشعبي: ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلا كان ذلك أحبهما إلىٰ الله - ﷻ (١).

-ولذلك أولىٰ الرأيين عندي هو الفطر في حال المرض وحال السفر، إذا كان هناك مشقة شديدة في الصيام حال المرض أو السفر، والمسألة ترجع إلىٰ ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه- والله تعالىٰ أعلم-.

تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية الكريمة من أسرار بلاغية:

إن من يتأمل النظم هنا يرىٰ العديد من الدقائق البلاغية، ومنها:

استهلت الآية الكريمة بالاستئناف البياني كالعلة لقوله: ﴿ومن كان مريضا﴾، بيَّن به حكمة الرخصة؛ أي: شرع لكم القضاء؛ لأنه يريد بكم اليسر عند المشقة.

---

(١) يُراجع: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، (١/ ٣٧٩)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (نفي لضد اليسر، وقد كان يقوم مقام هاتين الجملتين جملة قصر؛ نحو أن يقول: ما يريد بكم إلا اليسر، لكنه عدل عن جملة القصر إلىٰ جملتي إثبات ونفي؛ لأن المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلا للرخصة، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيدا لها، ويجوز أن يكون قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ تعليلا لجميع ما تقدم من قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلىٰ هنا، فيكون إيماء إلىٰ أن مشروعية الصيام وإن كانت تلوح في صورة المشقة والعسر فإن في طيها من المصالح ما يدل علىٰ أن الله أراد بها اليسر أي: تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرىٰ أنفسهم(١) .

وتضافرت المقابلة مع القصر، حيث أُثبتت أولًا إرادة اليُسْر، ونُفِيَ بعدها إرادة العُسْر، مع أنه يمكن التعبير بغير أسلوب المقابلة كأسلوب القصر الذي هو في قوة جملتي إثباتٍ ونفيٍ، بحيث يقال: (لا يريد الله بكم إلَّا اليُسْر)، وفي هذا التعبير إثباتٌ لإرادة اليُسْر ونفيٌ لإرادة غيره وهو العُسْر، لكنه نفيٌ مفهومٌ وليس بمنطوقٍ؛ ولعلَّ كونَ التكليف بما يُظَنّ أنّ فيه مشقة علىٰ العباد يُوهِم إرادة العُسْر جاء التعبير بأسلوب المقابلة لينفي صراحةً أيّ تَوهُّم بإرادة العُسْر، وليكون إرادة اليُسْر مقصودًا ابتداءً ليكون تعليلًا للرخصة في إفطار المريض والمسافر.

(١) يُراجع: التحرير والتنوير للعلامة/ الطاهر بن عاشور، (٢/ ١٢٥)- الدار التونسية للنشر – تونس – (١٩٨٤م).

فالمقابلة تجلو الأفكار، وتوضح المعاني، وتبرزها في صورة جلية، وتؤكدها وتقويها، وتؤدي إلىٰ تلاحم الأجزاء وائتلاف الألفاظ وزيادتها جمالا، سواء كان ذلك من خلال عرض الأضداد أم الأشباه، وهذا سر جمالها.

"فالطباق والمقابلة من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع التي لها صلة وثيقة ببلاغة الكلام إذ الضد أقرب خطورة بالبال عند ذكر ضده"(١).

وأُوثرالتعبير بصيغة المضارع في قوله ﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة علىٰ تجدد الإرادة واستمرارها، وتكراره في قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، ﴿يُرِيدُ بِكُمُ﴾ للتأكيد علىٰ مادة الإرادة.

ونلاحظ أن النظم القرآني عبر بلفظ الجلالة اسمًا ظاهرًا دون الضمير؛ لأن الاسمُ الظاهرُ في ذلك كالضميرِ الغائبِ، وفيه ما لا يَخفْىٰ من تشريفِه ورفعِ محلِّه.

وفي تعريف (ٱلْعُسْرَ) بالألف واللام، الدالة علىٰ الاستغراق والعموم يدل علىٰ أن كل عسر، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ؛ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

واللف والنشر، في قوله تعالىٰ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

وهو يبدو هنا كأخذة السحر لا يملك معه البليغ أن يأخذ أو يدع وقلّ من ينتبه له.

ولعل تكريره لذلك، أو لئلا يتوهم نسخه كما قرينه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر، وجاء التكرار؛ لإفادة

---

(١) يُراجع: الصبغ البديعي، د/ أحمد إبراهيم موسىٰ، (ص٤٧١) (دار الكتاب العربي، القاهرة) (١٣١٨ هـ = ١٩٦٩م).

الاهتمام إذ يحصل من تكرير الفعل تأكيد مدلوله، والتكرار يأتي لتعديد الآلاء والنعم الإلهية الجليلة التي لا تُحصىٰ.

وبالنظر يتبين أن غرض الجملة هو :

-إظهار حكمة الشريعة وكمالها بتضمنها لليسر والرحمة، لتطمئن النفوس إليها، وتأنس بها، ومن هذه الآية أخذ العلماء القاعدة الكلية في الشريعة: "المشقة تجلب التيسير(١)".

- أن الصيام من أعظم الأحكام التي يحصل فيها مشقة، خاصة أنهم لم يعتادوه من قبل، فناسب ذكر التيسير فيه وإظهاره.

كما نلاحظ تكرير " الراء" في النظم القرآني، وكانَ علماءُ العربيةِ قد ذكروا هذهِ الصفةَ للرّاء، إذ قال سيبويهِ: " ومنها المكرّر، وهو حرفٌ شديدٌ يَجري فيهِ الصّوتُ لتكريرهِ وانحرافهِ إلىٰ اللام، فتجافىٰ للصّوتِ كالرّخوة، ولو لَم يُكرّر لم يَجرِ الصوتُ فيهِ وهو الرّاء "(٢).

وقالَ أيضـًا: " والرّاءُ إذا تَكلّمْتَ بها خرجتْ كأنّها مُضاعَفة "(٣)، أمّا علماءُ الأصواتِ المحدثونَ فقد وَصفوا صوتَ الرّاءِ في العربيّةِ بأنّه مكرر، وذلكَ للضرباتِ

---

(١) يُراجع: كتاب شرح منظومة القواعد الفقهية للسعدي - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفىٰ: ١٣٧٦ هـ)، ٢/ ١٠، طبعة دار الميمان ١٤٣١ هـ.

(٢) يُراجع: الكتاب، تأليف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسيبويه (ت ١٨٠ هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ٤ / ٤٣٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٣) يُراجع: السابق نفسه٤/ ١٣٦.

المتكررةِ لطرفِ اللسانِ علىٰ اللثة، فقالوا: " والرّاءُ صوتٌ مكرّر، لأنّ التقاءَ طرفِ اللسانِ بحافّةِ الحنكِ مِمّا يلي الثنايا العليا يَتكرّرُ في النطقِ بها، كأنّما يَطرقُ طرفُ اللسانِ حافّةَ الحنكِ طَرْقًا ليّنًا يَسيراً مَرّتين، أو ثلاثًا لتتكوّنَ الراءُ العربيّةُ "(١).

هذا وبعد أن أبحرنا في التقاط بعض بلاغة النظم القرآني، لإشباع النَّفس وإمتاعها حسًا ومعنىً نجد أن نصوص الشريعة الغراء مبنية علىٰ السماحة واليسر ورفع الحرج، بل إن التيسير ورفع الحرج أصل من أصول الشريعة الإسلامية.

تعقيب وتأمل:

بعد المطالعة والتحليل استنبطت الباحثة أنّ لفظ اليسر يقترن في القرآن الكريم في ٤١ آية علىٰ ضوء المواقف أو الموضوعات المختلفة إجمالاً في ٢٨ موضعًا، وهي:

١. في حكم الصيام: في سورة البقرة الآية ١٨٥.

٢. في حكم الحج والعمرة: في سورة البقرة الآية ١٩٦.

٣. في تحريم الخمر والميسر: في سورة البقرة الآية ٢١٩.

٤. في موقف قضاء الدين: في سورة البقرة الآية ٢٨٠.

٥. في تعذيب الظالمين في النار: في سورة النساء الآية ٣٠.

٦. في تعذيب الكافرين في النار: في سورة النساء الآية ١٦٩.

٧. في حكم الخمر والميسر: في سورة المائدة الآية ٩٠-٩١.

٨. في قدرة الملك علىٰ تقرير الكيل: في سورة يوسف الآية ٦٥.

---

(١) الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، ص:٦٠، ويُراجع:الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د/ غانم قدوري الحمد، ص:٣١٧، ٣١٨، دار عمار، الطبعة الثانية- ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م.

٩. تقديم القول عند ذي القربىٰ والمساكين وابن السبيل: في سورة الإسراء الآية ٢٨.

١٠. في موقف أمر الله: في سورة الكهف الآية ٨٨.

١١. في موقف سهولة اللسان لقراءة القرآن: في سورة مريم الآية ٩٧ والدخان الآية ٥٨.

١٢. في موقف تسهيل الأمر: في سورة طه الآية ٢٦.

١٣. في موقف قدرة الله: في سورة الحج الآية ٧٠ والعنكبوت الآية ١٩.

١٤. في موقف خلق الله الكون: في سورة الفرقان الآية ٤٦.

١٥. في تحديد الوقت القصير: في سورة الأحزاب الآية ١٤.

١٦. في إحباط الله أعمال الأشحاء: في سورة الأحزاب الآية ١٩.

١٧. في موقف تعذيب: في سورة الأحزاب الآية ٣٠.

١٨. في موقف إبطان أعمال الكافرين: في سورة يس الآية ٧٦.

١٩. في موقف شر الناس يوم القيامة: في سورة ق الآية ٤٤.

٢٠. في جريان الجاريات: في سورة الذاريات الآية ٣.

٢١. في قراءة القرآن: في سورة القمر الآية ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، والمزمل الآية ٢٠.

٢٢. إتيان مصيبة: في سورة الحديد الآية ٢٢.

٢٣. سهولة الأمور: في سورة الطلاق الآية ٤، ٧، والشرح الآية ٥-٦.

٢٤. في موقف صعوبة الكفر: في سورة المدثر الآية ١٠.

٢٥. اليسر في عبور السبيل: في سورة عبس الآية ٢٠.

٢٦. في موقف حساب الناس يوم القيامة: في سورة الانشقاق الآية ٨.

٢٧. السهولة لدخول الجنة: في سورة الليل الآية ٧.

٢٨. سهولة دخول الإسلام: في سورة الأعلىٰ الآية ٨.

ولفظ اليسر من حيث المعاني السياقية في القرآن الكريم؛ فتأتي مختلفة علىٰ حسب السياقات المتنوعة.

فلفظ اليسر في كتب التفاسير تكون معانيه أولاً: بمعنىٰ السهولة، وثانيـًا: بمعنىٰ التخفيف والتسهيل، وثالثـًا: بمعنىٰ العدة الحسنة، ورابعـًا: بمعنىٰ الخفي، وخامسـًا: بمعنىٰ قليل، وسادسـًا: بمعنىٰ هين، وسابعـًا: بمعنىٰ الجنة، وثامنـًا: بمعنىٰ الرخاء والفرج.

وأما لفظ العسر من حيث المعاني السياقية في القرآن الكريم؛ فتأتي أيضـًا مختلفة علىٰ حسب السياقات المتنوعة.

فلفظ العسر في كتب التفاسير تكون معانيه أولاً: بمعنىٰ الضيق والمشقة، وثانيـًا: بمعنىٰ عدم القدرة علىٰ أداء الدين، وثالثـًا: بمعنىٰ صعوبة الأمر وشدته، ورابعـًا: بمعنىٰ يوم القيامة، وخامسا: بمعنىٰ الاختلاف بين الزوجين، وسادسـًا: بمعنىٰ الشر أو النار[١].

---

[١] يُراجع: معاني ألفاظ اليسر والعسر وما يشتق منهما في القرآن الكريم(دراسة تحليلية دلالية وتضمينها التربوي) تينا أسماء الحسنىٰ همزة، ص١٨- ١٩، جامعة سونان غونونج جاتي الإسلامية الحكومية باندونج.

الآية الثانية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

الآية بحسب ظاهر السياق بيان لقوله: (وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ)، ويؤيده ما هو ظاهر الآية من كونه - صلىٰ الله عليه وآله- رسولاً نبيًا أميًا، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كل ذلك من أمارات النبوة الخاتمة وآياتها المذكورة لهم في التوراة والإنجيل فمن الإيمان بآيات الله الذي شرطه الله – تعالىٰ- لهم في كلامه: أن يؤمنوا بالآيات التي ذكرت لهم أمارات نبوة محمد- صلىٰ الله عليه وآله[1]).

وتتابع هذه الآية صفات هؤلاء الذين يستحقون الرحمة فتذكر أن هؤلاء المؤمنين قد آمنوا بالنبي الأمي الذي أرسل في أمة أمية، وكانت الأمية آية ومعجزة له؛ فقد جاء بكتاب منزل عليه اشتمل علىٰ أكمل العلوم: في العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال.

وقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي نوحي إليه كتابا مختصا به.

(١) يُراجع: الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، (٨/ ٢٧٨).

أي: الذين كتبتُ لهم رحمتي هم الذين يتبعون محمدا الرسول النبي، الذي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب(١).

وقوله:(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ) فيه تعليم لكيفية اتباعه - عليه الصلاة والسلام -، وبيان لعلو رتبة متبعيه، واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة في الدارين إثر بيان نعوته الجليلة، والإشارة إلىٰ إرشاده - عليه الصلاة والسلام - إياهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، أي: فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوا أوامره ونواهيه.

وجاءت الآية مناسبة لما قبلها في سياق أن من صفة من تكتب له الرحمة في الدنيا والآخرة: التقوىٰ، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآيات؛ ضم إلىٰ ذلك أن يكون من صفته اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية الكريمة من أسرار بلاغية:

إنَّ في نظم الآية من الأسرار والدقائق مايحتاج إلىٰ بيان:

بدأت الآية الكريمة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ ولم يعطف؛ لئلا يوهم تعداد الموصوف، ومما يسترعي الاهتمام هنا هو ما جاء به النظم القرآني من تعريف المسند إليه بالموصولية للتعظيم، ولتعليل الحكم، وهو بيان لسبب أفضليتهم.

---

(١) يُراجع: جامع البيان عن تأويل القرآن، ت: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (١٠/ ٤٨٨)، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (ص: ٣٠٥)، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ (١٣٦٥ هـ =١٩٤٦م) بتصرف.

"يستخدم القرآن الكريم الاسم الموصول في كثير من المواضع حيث تكون صلته هي مناط الحكم وموضع الاهتمام وقد يتعدد الموصول وتتعدد لذلك الصلات حيث يراد الاهتمام في كل صلة واستغلالها بأمر مستحق للبيان والإظهار(١).

و"لعظم مقام الاسم الموصول تعددت مقاصده الأسلوبية حيث يرد في سياقات مختلفة بدلالات متباينة، والمعول عليه في ذلك كله هو الغرض من الموصول فإن كان الغرض منه أمراً معهوداً للمخاطب جاءت صلته معهودة مفصلة وإن أريد به التعظيم أو التهويل جاءت مبهمة بمنزلة المفصلة(٢)".

أضف إلىٰ ذلك ما في البدء باسم الموصول من تشويق وتمهيد لما يأتي بعده في حيِّز الصِّلة، إذ إنَّ السَّامع حينما يطرق أذنية لفظ (الذين) تتهيَّأ نفسه، وتتشوَّق إلىٰ معرفة ما تتضمَّنه صِلتُه وكأن الاسم المذكور أداة تنبيه تدفع المرء إلىٰ الإصغاء أوَّلاً فإذا ما جاء بعده (يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ) استقرَّ في النَّفس وتمكَّن فيها فضل تمكُّن.

(١) يُراجع: دراسات قرآنية في جزء عم، محمود أحمد نخلة، (ص:١٥٨- ١٥٩)، دار العلوم العربية للطباعة والنشر (١٩٨٩م).

(٢) يُراجع: من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت ١٣٨٤ ه)، (ص:١٣٦ - ١٣٧)، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة (٢٠٠٥م).

وقوله ﴿عِندَهُمْ﴾ لزيادة التقرير، وأن شأنه - عليه الصلاة والسلام - حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا (١).

وجاءت جملة الصلة هنا جملة فعلية، وهذا يدل على جدية الاتباع واستمراره، تعتبر جملة صلة الموصول مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، لما تؤديه من دور في النظم القرآني لا يسد مسده.

وبالتأمل نلحظ أنه قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن غيرها من الأوصاف؛ لبيان أنه مطلوب لذاته، وأنه فضيلة لا تختلف فيها الأمم ولا الجماعات، فهو كالصدق والعدل والحق تتفق عليها الأفهام ولا يمكن أن يتحقق بنيان جماعة من غير تحققه، وإلا كانت كالذئاب الضارية، أو كانت كالوحوش في الغابة.

ثم عرضت الآية المقابلة في قوله سبحانه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أبرزت طبيعة رسالته -ﷺ- وخصائص منهجه، كما بينت هذه المقابلة ما في رسالته -ﷺ- من المنة والتخفيف عن بني إسرائيل ونلمح ذلك في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

---

(١) يُراجع: نظم الدرر للبقاعي، (٨/ ١٠٦)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود بن محمدالعمادي الحنفي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطاء، (٣/ ٢٧٩)، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة. د. ط. ت.

ومما يلفت النظر التعبير بصيغة الجموع في قوله: (ويحرم عليهم الخبائث) حيث يدل ذلك علىٰ أن الخبيث الذي يحرمه رسول الله -ﷺ- عليهم أكثر من الطيب الذي يحله لهم.

وأبان النظم القرآني أسلوب التشبيه في قوله ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فشبه حال المزال عنه ما يحرجه من التكاليف، بحال من كان محملا بثقل فأزيل عن ظهره ثقله [1]، وقد أومأ التعبير بالمفرد (إصرهم) إلىٰ عدم تفاوت اليهود في تلك التكاليف الشاقة التي كانت في شريعتهم، إذ لم يتمايز فيها أشخاص منهم، وعلىٰ هذا فمنة التخفيف التي جاء بها رسول الله-ﷺ- تأسرهم فرداً فرداً إذ هي عمت المؤمنين به جميعا.

وتعانق معه تشبيه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل إذا رأىٰ نورا يلوح له فاتبعه؛ لعلمه بأنه يجد عنده منجاة من المخاوف، وأضرار السير في قوله ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

وتأمل كيف كان حرف الاستعلاء هو الأنسب معنىً من حرف الظرفية في قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ذلك أن الغرض هنا هو التذكير بمنة رسول الله -ﷺ- علىٰ اليهود، لذا كان التعبير ب (علىٰ)، للدلالة علىٰ تمكن تلك الأحكام الشاقة في شريعتهم وغلبتها لهم، وتمكنها من قهرهم وإرهاقهم، لذا كانت المنة العظيمة برفعها عنهم في شريعة محمد -ﷺ-، وبهذا يتناغم حرف الاستعلاء مع حرف المجاوزة في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾، لأن حرف المجاوزة هنا يوحي بأن الرسول -ﷺ -لا يرفع عن اليهود المؤمنين به الأحكام الشاقة فقط،

(١) يُراجع: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، (٩/ ١٣٦).

وإنما يبعدها عنهم، بحيث تتجاوزهم تجاوزاً لا رجعة فيه، ولذا كانت المنة الكبرىٰ لليهود المؤمنين بمحمد -ﷺ-، وكانت من آثار رحمته – تعالىٰ- بالمؤمنين منهم بالنبي الخاتم -ﷺ-.

وفرق كبير بين قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ وبين أن يقال: (ويضع إصرهم)؛ فوضع الإصر في التعبير الثاني يدل دلالة قطعية علىٰ تجاوز تلك التكاليف الشاقة لليهود، إذ ربما تفرض عليهم ثانية، وذلك بخلاف التعبير القرآني الذي يناسب مقام الرحمة والمنة والتخفيف بدلالته علىٰ رفعه -ﷺ- تلك التكاليف عنهم رفعًا لا عودة فيه، بحيث لا يبقىٰ في خاطرهم ما يؤرقهم باحتمال فرض تلك التكاليف عليهم ثانية بعد تجاوزها إياهم.

ويلاحظ أن قوله تعالىٰ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (كلام مستأنف لا محل له من الإعراب، قاله الزجاج، متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وعد فيما سبق بكتبها إجمالا، فإن ما بين فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث، وإسقاط التكاليف الشاقة، كلها من آثار رحمته الواسعة.

وقيل: في محل النصب علىٰ أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه، أو من النبي، أو من المستكن في (مكتوبا)، أو مفسر لـ (مكتوبا)؛ أي: لما كتب.

ثم تمضي بنا الآية في بيان الطيبات، والخبائث، وقوله﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم.

وقوله﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ كالدم ولحم الخنزير، والربا والرشوة.

وقوله ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة، التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ، من كون التوبة بقتل النفس، كتعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت.

و﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عظموه ووقروه، وأعانوه بمنع أعدائه عنه، وقرئ بالتخفيف، وأصله المنع، ومنه التعزير.

و﴿وَنَصَرُوهُ﴾ علىٰ أعدائه في الدين.

وقوله﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع نبوته، وهو القرآن، عبر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره، أو مظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع.

ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا؛ أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه -ﷺ- بالعمل بسنته، وبما أمر به ونهىٰ عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه.

و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلىٰ المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة؛ للإشعار بعليتها للحكم، وما فيه من معنىٰ البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم في الفضل والشرف؛ أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة.

واسم الإشارة في قوله: (أولئك هم المفلحون) يميز الذين أفلحوا ليقرر الحكم لهم بأنهم مفلحون، وعلىٰ هذا فذكر المسند إليه(فأولئك) إنما هو لزيادة التقرير والإيضاح، وقد دلت الإشارة للبعيد في هذه الجملة علىٰ سمو رفعة الذين يؤمنون بمحمد-ﷺ- وبعد منازلهم.

وينتهي سياق الآية بقوله ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ أي: هم الفائزون بالمطلوب، الناجون عن الكروب، لا غيرهم من الأمم، فيدخل فيهم قوم موسىٰ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – دخولا أوليا، حيث لم ينجوا عما في توبتهم من المشقة الهائلة، وبه يتحقق التحقيق ويتأتىٰ التوفيق والتطبيق بين دعائه – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –، وبين الجواب، لا بمجرد ما قيل من أنه دعا لنفسه ولبني إسرائيل، أجيب بما هو منطو علىٰ توبيخ بني إسرائيل علىٰ استجازتهم الرؤية علىٰ الله –وَعَجَّلَ–، وعلىٰ كفرهم بآياته العظام التي أجراها علىٰ يد موسىٰ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (١) .

–ومن نكت القرآن الجمع في هذه الآية بين وصفي النبوة والرسالة للإشارة إلىٰ أن اليهود بدلوا وصف الرسول وعبروا عنه (بالنبي) ليصدق علىٰ أنبياء بني إسرائيل، وغفلوا عن مفاد قوله (مثلك)، وحذفوا وصف الأمي، وقد كانت هذه الآية سبب إسلام الحبر العظيم الأندلسي السموأل بن يحيىٰ اليهودي، كما حكاه عن نفسه في كتابه الذي سماه غاية المقصود في الرد علىٰ النصارىٰ واليهود.

فهذه الرحمة العظيمة تختص بالذين آمنوا بالنبي محمد –ﷺ– من اليهود والنصارىٰ، وتشمل الرسل والأنبياء الذين أخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد –ﷺ– فكانوا عالمين ببعثته يقينا فهم آمنوا به، وتنزلوا منزلة من اتبع ما جاء به، لأنهم استعدوا لذلك، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم غير بني إسرائيل لأنهم ساروا – من آمن بمحمد – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – من اليهود في اتباع الرسول النبي الأمي.

(١) يُراجع: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/ ٢٧٩).

كما يلحظ تقديم وصف الرسول لأنه الوصف الأخص الأهم، ولأن في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتىٰ بعد موسىٰ من أنبياء بني إسرائيل، ولأن محمدا -ﷺ- اشتهر بوصف النبي الأمي، فصار هذا المركب كاللقب له، فلذلك لا يغير عن شهرته، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

والأمي: الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلىٰ الأم أي هو أشبه بأمه منه بأبيه؛ لأن النساء في العرب ما كن يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلا في الإسلام، فصار تعلم القراءة والكتابة من شعار الحرائر دون الإماء كما قال عبيد الراعي، وهو إسلامي.

ووضع الإصر إبطال تشريعه، أي بنسخ ما كان فيه شدة من الشرائع الإلهية السابقة، وحقيقة الوضع الحط من علو إلىٰ سفل وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة.

وحقه التعدية إلىٰ المفعول الثاني بحرف (في) الظرفية، فإذا عدي إليه بـ (عن) دل علىٰ نقل المفعول الأول من مدخول (عن) وإذا عدي إلىٰ المفعول الثاني بـ (علىٰ) كان دالا علىٰ حط المفعول الأول في مدخول (علىٰ) حطا متمكنا، فاستعير (يضع عنهم) هنا إلىٰ إزالة التكليفات التي هي كالإصر والأغلال فيشمل الوضع معنىٰ النسخ وغيره.

و(الإصر) ظاهر كلام الزمخشري في الكشاف والأساس أنه حقيقة الثقل، بكسر الثاء الحسي بحيث يصعب معه التحرك، ولم يقيده غيره من أصحاب دواوين اللغة، وهذا القيد من تحقيقاته، وهو الذي جرىٰ عليه ظاهر كلام ابن العربي في الأحكام، والمراد به هنا التكاليف الشاقة والحرج في الدين فإن كان كما قيده الزمخشري يكن

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ تمثيلية بتشبيه حال المزال عنه ما يحرجه من التكاليف بحال من كان محملا بثقل فأزيل عن ظهره ثقله، وإن لم يكن كذلك كان الإصر استعارة مكنية، ولذلك صرح الإمام الزمخشري ببلاغة الاستعارة المكنية فقال: "وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بذلك الرمزة علىٰ مكانه ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس،.... لم تقل هذا إلا وقد نبهت علىٰ الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر"(١).

و(يضع) تخييلا، وهو أيضا استعارة تبعية للإزالة.

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة علىٰ أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل علىٰ معاص كثيرة، منها العمل يوم السبت، ومثل تحريم مأكولات كثيرة طيبة وتغليظ التحريم في أمور هينة، كالعمل يوم السبت، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنها لم تشرع فيها التوبة من الذنوب، ولا استتابة المجرم.

والأغلال جمع غل - بضم الغين - وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد الموكل بحراسة الأسير، قال - تعالىٰ - ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [سورة غافر: ٧١]، ويستعار(الغل) للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق؛ فهو استعارة فإن بنينا علىٰ كلام الزمخشري كان (الأغلال) تمثيلية بتشبيه حال المحرر من الذل والإهانة بحال من أطلق من الأسر، فتعين أن وضع (الأغلال) استعارة لما يعانيه اليهود من المذلة

(١) يُراجع: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، (١/ ٢٦٨)، طبع دار الفكر العربي (١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م).

بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس، ومناسبة استعارة الأغلال للذلة أوضح؛ لأن الأغلال من شعار الإذلال في الأسر والقود ونحوهما.

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود، المتحدث عنهم في خطاب الله – تعالىٰ – لموسىٰ، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد –ﷺ– لأن اليهود قد كان لهم شرع، وكان فيه تكاليف شاقة، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم، ولذلك أضاف الله (الإصر) إلىٰ ضميرهم، ووصف (الأغلال) بما فيه ضميرهم، علىٰ أنك إذا تأملت في حال الأمم كلهم قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية، ومثل تكاليف شاقة عند النصارىٰ والمجوس لا تتلاقىٰ مع السماحة الفطرية، وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة، وإذلال الرؤساء، وشدة الأقوياء علىٰ الضعفاء، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات، والتكايل في الدماء، وأكلهم أموالهم بالباطل، فأرسل الله محمدا –ﷺ– بدين من شأنه أن يخلص البشر من تلك الشدائد.

والفاء في قوله ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ فاء الفصيحة، والمعنىٰ: إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوأته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أن الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا هديه، هم المفلحون.

هذا، ولا يفوتني كذلك أن أشير إلىٰ (أسلوب القصر)، والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي، أي: هم الذين أفلحوا أي دون من كفر به بقرينة المقام؛ لأن مقام دعاء موسىٰ يقتضي أنه أراد المغفرة والرحمة وكتابة الحسنة في الدنيا والآخرة لكل من اتبع دينه، ولا يريد موسىٰ شمول ذلك لمن لا يتبع

الإسلام بعد مجيء محمد -ﷺ-، ولكن جرىٰ القصر علىٰ معنىٰ الاحتراس من الإيهام.

ويجوز أن يكون (القصر ادعائيا)، دالا علىٰ معنىٰ كمال صفة الفلاح للذين يتبعون النبي الأمي، ففلاح غيرهم من الأمم المفلحين الذين سبقوهم كلا فلاح، إذا نسب إلىٰ فلاحهم، أي أن الأمة المحمدية أفضل الأمم علىٰ الجملة، وأنهم الذين تنالهم الرحمة الإلهية التي تسع كل شيء من شئونهم.

واتباع النور تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شبه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل إذا رأىٰ نورا يلوح له اتبعه، لعلمه بأنه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير، وأجزاء هذا التمثيل استعارات، فالاتباع يصلح مستعارا للاقتداء، وهو مجاز شائع فيه، والنور يصلح مستعارا للقرآن لأن الشيء الذي يعلم الحق والرشد يشبه بالنور، وأحسن التمثيل ما كان صالحا لاعتبار التشبيهات المفردة في أجزائه.

وفي التشبيه التمثيلي نقل للنفس من المعقولات إلىٰ المحسوسات؛ لتوضيحها وإجلاء صورتها فتأنس لها النفس.

"وأنس النفس موقوف علىٰ أن تُخرجها من خفي إلىٰ جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تُعلمها إياه إلىٰ شئ آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقُلها عن العقل إلىٰ الإحساس وعما يُعلم بالفكر إلىٰ ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلىٰ حدّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام"(١).

(١) يُراجع: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت: محمود شاكر)، (ص١٢١)، مكتبة الخانجي(١٩٩١م).

والإشارة في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ للتنويه بشأنهم، وللدلالة علىٰ أن المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وفي هذه الآية المباركة (تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي -ﷺ-رضي الله عنهم-، ويلحق بهم من نصر دينه بعدهم[١] .

فالمتمعن في التعبير الكريم يطالع أكثر من استعارة، منها استعارة "الإصر والأغلال".

فالإصر الثقل الذي يأصر صاحبه[٢] .

وهو استعارة لما كان في شرائعهم من الأعمال الشاقة [٣]، ويرىٰ محمد رشيد رضا أنه "مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل النفس في صحة توبتهم وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة" [٤].

---

(١) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٩/ ١٣٨).

(٢) يُراجع: مفاتيح الغيب، ت: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦ ﻫ)، ١٥/ ٢٥، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروتالطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ ﻫ.

(٣) يُراجع: محاسن التأويل، ت: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢ ﻫ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، ٧/ ٢٨٨٢، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٨ ﻫ.

(٤) يُراجع: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤ ﻫ)، ٩/ ٢١٩، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

أما ابن عاشور فكان غير مستقر في رأيه عند وصف هذه الآية فمرة ينعتها بالمكنية وأخرىٰ تبعية فيقول "فإن كان كما قيده الزمخشري يكن (ويضع عنهم إصرهم) تمثيلية تشبيه حال المزال عنه ما يحرجه من التكاليف بحال من كان محملاً بثقل فأزيل عن ظهره ثقله، كما في قوله تعالىٰ :﴿ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٣١]، وإن لم يكن كذلك كان (أصرهم) استعارة مكنية و(يضع) تخييلاً وهو أيضًا استعارة تبعية للإزالة[١] ".

أما الاستعارة الأخرىٰ في الآية فهي قوله تعالىٰ (وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي).

يقول الرازي "﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.وهو القرآن وقيل: الهدىٰ والبيان والرسالة، وقيل الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور فإن قيل: كيف يمكن حمل النور ههنا علىٰ القرآن؟ والقرآن ما أنزل مع محمد، وإنما أنزل مع جبريل.

قلنا: معناه إنه أنزل مع نبوته؛ لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن" [٢] ونرىٰ علىٰ ذلك أن "أجزاء هذا التمثيل استعارات، فالاتباع يصلح مستعاراً للقرآن؛ لأن الشيء الذي يعلم بالحق والرشد يشبه بالنور، وأحسن التمثيل ما كان صالحًا لاعتبار التشبيهات المفردة في أجزائه" [٣] فالنور "هنا مستعار للبيان والحجة الكاشفة عن الحق، المزيلة للشك، النافية للريب وليس بين النور، والحجة التي جاء بها رسول الله – ﷺ – اشتراك الأمن جهة الصورة العقلية[٤]".

---

(١) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور ٩/ ١٣٦.

(٢) يُراجع: مفاتيح الغيب للرازي ١٥/ ٢٥-٢٦.

(٣) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور ٩/ ١٣٨.

(٤) يُراجع: فنون التصوير البياني، د/ توفيق الفيل، ص:٢٧٥، مكتبة الآداب، ١٩٩٨م.

ويذهب أحد الباحثين إلىٰ أن الاستعارة تصريحية فيقول "شبه القرآن الكريم بالنور... لأنه يضيء قلب المؤمن فيرشده إلىٰ المنهج الصحيح والاستعارة تصريحية أصلية بجريانها في الجامد" (١). وهذا ما نؤيده ونوافق عليه. والله أعلم.

فالنص الكريم حمل استعارات عدة زاخرة بالإيحاء وخرجت عن الأصل في الاستعمال المثالي للفظ إلىٰ معانٍ أخرىٰ متميزة.

(١) يُراجع: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم: دراسة ووصف وتقويم وأمثلة (رسالة دكتوراة) تأليف: د. أحمد حمد محسن الجبوري، ص:٢٢٨، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٣٦ هـ.

الصورة الثانية: في مقام معجزة القرآن الكريم، وحفظ الله – تعالى - له.

الآية الأولى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩].

وبالتأمل في الآية المباركة نرىٰ أنها شملت المعاني الآتية-:

﴿قُلْ﴾ لهم – لما بينا لهم الهدىٰ، وأوضحنا لهم المسالك-: ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ ﴾ علىٰ هذا الأصل العظيم.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني علىٰ ما قلت لكم، فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبا عليه، زاعما أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه، وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله، فيؤيده علىٰ ما قال بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، وينصره، ويخذل من خالفه وعاداه، فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة؟، وقوله: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ أي وأوحىٰ الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم.

والنذارة (إنما تكون بذكر ما ينذرهم به، من الترغيب، والترهيب، وببيان الأعمال، والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي مَن قام بها، فقد قبل النذارة، فهذا القرآن، فيه النذارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلىٰ يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بيّن – تعالىٰ– شهادته التي هي أكبر الشهادات علىٰ توحيده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ ﴾ أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازِنْ بين شهادة أصدق القائلين، ورب العالمين، وشهادة أزكىٰ الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، علىٰ توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك، الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا علىٰ أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرهم، وتناقضت أقوالهم علىٰ إثبات أن مع الله آلهة أخرىٰ، مع أنه لا يقوم علىٰ ما قالوه أدنىٰ شبهة، فضلا عن الحجج، واختر لنفسك أي: الشهادتين، إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاقتداء به، فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي: منفرد، لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير، ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ به، من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله، فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه(١) .

وبالتأمل في مناسبة الآية لما قبلها يتبين لنا أنه لما ذكر الله –ﷻ– الاستدلال علىٰ إثبات ما يليق به – تعالىٰ– من الصفات، انتقل إلىٰ إثبات صدق رسالة محمد –ﷺ–، وإلىٰ جعل الله حكمًا بينه وبين مكذبيه(٢) .

---

(١) يُراجع: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١/ ١٣٠).

(٢) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، ٧/ ١٦٦.

تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية المباركة من أسرار بلاغية:

النظر في القول الكريم: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٩].

والوقوف أمامه من ناحية بنيته التركيبية؛ لنتعرَّف علىٰ مدىٰ إحكام الصنعة البيانية فيها.

-بدأت الآية المباركة بـ (انتقال من الاستدلال علىٰ إثبات ما يليق بالله من الصفات)، إلىٰ إثبات صدق رسالة محمد - ﷺ- وإلىٰ جعل الله حكما بينه وبين مكذبيه، فالجملة استئناف ابتدائي، ومناسبة ظاهرة.

وصدرت الآية الكريمة بـ (قل)، وبصيغة الاستفهام تنبيها إلىٰ جلال الشاهد، وإلىٰ سلامة دعوىٰ النبي - ﷺ - لكي يدركوا ما فيها من حق وما هم فيه من ضلال.

وأوثرت كلمة)شيء(في قوله- تعالىٰ-: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ ﴾ لأنها تفيد الشمول والإحاطة والاستقصاء.

قال صاحب الكشاف: ما ملخصه قوله- تعالىٰ-:﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ ﴾ أراد: أي شهيد أكبر شهادة، فوضع شيئا مقام شهيد ليبالغ في التعميم، ويحتمل أن يكون تمام الجواب عنه قوله: (قُلِ اللهُ) بمعنىٰ: الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ (شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أىٰ: هو شهيد بيني وبينكم.

وأوثر لفظ"الله" في هذا المقام ولم يقل اسم آخر من أسماء الله الحسنىٰ؛ لأنه أعظمها؛ فهو دال علىٰ الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها وهو أخص الأسماء؛

إذ لا يطلقه أحد علىٰ غير ذاته ﷻ- لاحقيقة ولا مجاز، وسائر الأسماء قد يتسمىٰ بها غيره إلا هو(١)- .

وأن يكون﴿ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ هو الجواب، لدلالته علىٰ أن الله- تعالىٰ-: (إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة من هو شهيد له)(٢) .

-وقوله تعالىٰ(شَيۡءٍ) اسم عام من الأجناس العالية ذات العموم الكثير، قيل: هو الموجود، وقيل: هو ما يعلم ويصح وجوده.

ويتأنق النظم القرآني في إطلاق اسم (الشيء) علىٰ الله- تعالىٰ-؛ لقوله:(قل أي شيء أكبر شهادة قل الله)؛ لأن اسم الاستفهام إذا أضيف إلىٰ كلمة، صارت هذه الكلمة صادقة علىٰ جواب الاستفهام، وهنا جواب الاستفهام(الله)، فيكون الله – تعالىٰ- شيئا، فيخبر بكلمة (شيء) عن الله، ولكن لا يسمىٰ به؛ فالله – تعالىٰ- له الأسماء الحسنىٰ، وكلمة (شيء) لا تدل علىٰ هذا المعنىٰ(٣).

والأظهر في تعريفه أنه الأمر الذي يعلم، ويجري عليه الإخبار سواء كان موجوداً أم صفة موجودة أم معنىٰ يتعقل ويتحاور فيه.

و جاءت (أَكۡبَرُ) هنا بمعنىٰ أقوىٰ وأعدل في جنس الشهادات، وهو من إطلاق ما مدلوله عظم الذات علىٰ عظم المعنىٰ.

---

(١) يُراجع: المختصر في معاني أسماء الله الحسنىٰ، أستاذ محمود سامي بك، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة حجازي، القاهرة، ص: ١٣.

(٢) يُراجع: الكشاف للزمخشري، (٢/ ١١).

(٣) يُراجع: تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام، (ص: ١٠٤).

وقوله (شَهَادَةً) تمييز لنسبة الأكبرية إلىٰ الشيء فصار ماصدق الشيء بهذا التمييز هو الشهادة. فالمعنىٰ: أية شهادة هي أصدق الشهادات، فالمستفهم عنه بـ (أي) فرد من أفراد الشهادات يطلب علم أنه أصدق أفراد جنسه.

كما نلحظ أن قوله تعالىٰ ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ جواب للسؤال، ولذلك فصلت جملته المصدرة بـ (قل).

وهذا جواب أمر به المأمور بالسؤال علىٰ معنىٰ أن يسأل ثم يبادر هو بالجواب لكون المراد بالسؤال التقرير، وكون الجواب مما لا يسع المقرر إنكاره.

ثم بين- سبحانه-: أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي -ﷺ- فقال: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ).

أي: أن الله- تعالىٰ-: قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق، لأنذركم به يا أهل مكة، ولأنذر به- أيضا- جميع من بلغه هذا الكتاب الكريم ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل زمان ومكان إلىٰ يوم القيامة.

فهذه الجملة تدل علىٰ عموم بعثة النبي - ﷺ- كما تدل علىٰ أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله، وتعم- أيضا- الذين وجدوا بعد نزوله وبلغتهم دعوته، ولم يروا النبي ﷺ(١) .

-وقوله: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ عطف علىٰ جملة ﴿ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، وهو الأهم فيما أقسم عليه من إثبات الرسالة، وينطوي في ذلك جميع ما أبلغهم الرسول -ﷺ- وما أقامه من الدلائل.

(١) يُراجع:: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٢/ ١٢٦).

فعطف ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ من عطف الخاص علىٰ العام، وحُذف فاعل الوحي وبُني فعله للمجهول للعلم بالفاعل الذي أوحاه إليه وهو الله- تعالىٰ-.

ونلحظ إيجاز بالحذف؛ حيث حذف فاعل (الوحي)، وبني فعله(وأوحي) للمفعول؛ للعلم بالفاعل الذي أوحاه إليه، وهو الله – تعالىٰ-، وفيه حذف في قوله (ومن بلغ)، والتقدير: ومن بلغه هذا القرآن(١)، ولذلك " كان الكلام مع حذفه أدخل في الإعجاز، وأحسن في الاختصار والإيجاز، وأبلغ في تأليفه ونظمه، وأحلىٰ في سياقه وعذوبة طعمه(٢)" .

والإشارة بـ هذا القرآن إلىٰ ما هو في ذهن المتكلم والسامع، وعطف البيان بعد اسم الإشارة بين المقصود بالإشارة، واقتصر علىٰ جعل علة نزول القرآن للنذارة دون ذكر البشارة لأن المخاطبين في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلا الإنذار، فغاية القرآن بالنسبة إلىٰ حالهم هي الإنذار، ولذلك قال ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ مصرحا بضمير المخاطبين، ولم يقل: (لأنذر به)، وهم المقصود ابتداء من هذا الخطاب وإن كان المعطوف علىٰ ضميرهم (ينذر، ويبشر).

علىٰ أن لام العلة لا تؤذن بانحصار العلة في مدخولها إذ قد تكون للفعل المعدىٰ بها علل كثيرة.

---

(١) يُراجع: مفاتيح الغيب للرازي، (١٢/ ٤٩٩).

(٢) يُراجع: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيىٰ بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت ٧٤٥ ه)، (٢/ ١١٠-١١١)، المكتبة العنصرية – بيروت (١٤٢٣ه).

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ عطف علىٰ ضمير المخاطبين، أي ولأنذر به من بلغه القرآن وسمعه ولو لم أشافهه بالدعوة، فحذف ضمير النصب الرابط للصلة لأن حذفه كثير حسن.

ثم أمره- سبحانه- أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد، وأن يعلن براءته منهم ومن معبوداتهم فقال- تعالىٰ-: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم، وترديتم في مهاوي الشرك والضلال، وشهدتم بأن مع الله آلهة أخرىٰ، فإنىٰ بريء منكم ومن أعمالكم القبيحة، ومحال أن أشهد بما شهدتم به، وإنما الذي أشهد به وأعتقده، أن الله- تعالىٰ- واحد لا شريك له، وإنني بعيد كل البعد عن ضلالكم وجحودكم.

والاستفهام في قوله (أَئِنَّكُمْ) إنكاري، جيء به لاستقباح ما وقع منهم من شرك، وأكد قوله (لَتَشْهَدُونَ) للإشارة إلىٰ تغلغل الضلال في نفوسهم، واستيلاء الجحود علىٰ قلوبهم.

وعبر عن أوثانهم بأنها ﴿ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ ﴾ مجاراة لهم في زعمهم الباطل ومبالغة في توبيخهم والتهكم بهم.

وفي أمره- سبحانه- لنبيه -ﷺ- بأن يصارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم ﴿ قُل لَّآ أَشۡهَدُ﴾ توبيخ لهم علىٰ جهالتهم، وتوجيه لأتباعه إلىٰ الاقتداء به في شجاعته أمام الباطل، وفي ثباته علىٰ مبدئه.

وقد تضمن قوله- تعالىٰ: (قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ) اعترافًا كاملاً بوحدانية الله، وقصرها عليه- سبحانه-، وتصريحًا بالبراءة التامة من الأوثان وعابديها، وتنديداً شديداً بهذا العمل الباطل(١) .

كما نلحظ أن قوله تعالىٰ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

جملة مستأنفة من جملة القول المأمور بأن يقوله لهم؛ فهي استئناف بعد جملة ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ خص هذا بالذكر لأن نفي الشريك لله في الإلهية هو أصل الدعوة الإسلامية فبعد أن قررهم أن شهادة الله أكبر شهادة وأشهد الله علىٰ نفسه فيما بلغ، وعليهم فيما أعرضوا وكابروا؛ استأنف استفهاما علىٰ طريقة الإنكار استقصاء في الإعذار لهم فقال: أتشهدون أنتم علىٰ ما أصررتم عليه أن مع الله آلهة أخرىٰ كما شهدت أنا علىٰ ما دعوتكم إليه، والمقرر عليه هنا أمر ينكرونه بدلالة المقام.

شهادتهم هذه مما لا يكاد يصدق السامعون أنهم يشهدونها لاستبعاد صدورها من عقلاء، فيحتاج المخبر عنهم بها إلىٰ تأكيد خبره بمؤكدين فيقول: إنهم ليشهدون أن مع الله آلهة أخرىٰ، فهنالك يحتاج مخاطبهم بالإنكار إلىٰ إدخال أداة الاستفهام الإنكاري علىٰ الجملة التي من شأنها أن يحكي بها خبرهم، فيفيد مثل هذا التركيب إنكارين: أحدهما صريح بأداة الإنكار، والآخر كنائي بلازم تأكيد الإخبار لغرابة هذا الزعم بحيث يشك السامع في صدوره منهم.

(١) يُراجع: تفسير الوسيط لطنطاوي، (٥/ ٥٢ - ٥٣).

وممَّا يَلفت النَّظر من الوجهة البلاغية – بالإضافة إلىٰ ما سبق – في قوله ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ حيث جاء جواباً للاستفهام الذي في قوله ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾ لأنه بتقدير: قل أإنكم، ووقعت المبادرة بالجواب بتبريء المتكلم من أن يشهد بذلك، لأن جواب المخاطبين عن هذا السؤال معلوم من حالهم أنهم مقرون به فأعرض عنهم بعد سؤالهم كأنه يقول: دعنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإني لا أشهد بذلك.

وقوله:(أئنكم لتشهدون) فيه تأكيد الخبر بـ(إن) ولام الابتداء؛ ليفيد أن شهادتهم هذه مما لا يكاد يصدق السامعون أنهم يشهدونها؛ لاستبعاد صدورها من عقلاء؛ فاحتاج المخبر عنهم بها إلىٰ تأكيد خبره بمؤكدين.

وجملة ﴿ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ بيان لجملة ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ فلذلك فصلت لأنها بمنزلة عطف البيان، لأن معنىٰ لا أشهد بأن معه آلهة هو معنىٰ أنه إله واحد، وأعيد فعل القول لتأكيد التبليغ

وكلمة (إِنَّمَا) أفادت الحصر، أي هو المخصوص بالوحدانية.

ثم بالغ في إثبات ذلك بالتبريء من ضده بقوله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وفيه قطع للمجادلة معهم علىٰ طريقة المتاركة، و(ما) في قوله (مِّمَّا تُشۡرِكُونَ) يجوز كونها مصدرية، أي من إشراككم، ويجوز كونها موصولة، وهو الأظهر، أي من أصنامكم التي تشركون بها، وفيه حذف العائد المجرور لأن حرف الجر المحذوف مع العائد متعين تقديره بلا لبس، وذلك هو ضابط جواز حذف العائد المجرور(١)).

وهوتأكيد علىٰ إيجاب التوحيد، والبراءة عن الشرك (بإنما) التي تفيد الحصر، ولفظ واحد الصريح في التوحيد، ونفي الشركاء، وقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾

(١) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٧/ ١٦٥).

الذي فيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء؛ أو البراءة من إشراكهم، وهو كالتوكيد لما قبله؛ فثبتت دلالة هذه الآية علىٰ إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان، وأبلغ وجوه التأكيد.

وبالنظر نلحظ تكرير للأمر بقوله: (قل) أربع مرات؛ لتأكيد التبليغ.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد تضمنت شهادة من الله- تعالىٰ- بأن رسوله محمدا -ﷺ- صادق في رسالته، وشهادة من هذا الرسول الكريم بأن الله واحد لا شريك له، وأنه بريء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين.

وبالتأمل نلحظ تكرار صوت الشين في النظم القرآني، وهو صوت مهموس؛ فالصوتُ المهموسُ هو الذي لا يَهتَزُّ معهُ الوترانِ الصوتيّانِ، ولا يُسمع لهما رنينٌ حينَ النّطقِ به(١)").

ومن صفاته التفشّي، وإنْ كانتْ من الصفاتِ المحسّنة التي لا شأنَ لها في تمييزِ الأصواتِ، سوىٰ كونِها خاصيّةً صوتيّةً معيّنة في الصوتِ الـذي يُوصفُ بها، لكنّ أهمّيّتَها تكمنُ في تتبّعِ سلوكِ ذلكَ الصوتِ في التركيب، وفي تفسيرِ الظواهرِ الصوتيّةِ التي تَخُصّهُ(٢).

ومن خلال تحليلنا للآية الكريمة يمكن أن نخلص إلىٰ أن الآية جاءت في سياق حافل بالأساليب البلاغية المتنوعة للتأكيد علىٰ أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، الصالحة لكل زمان ومكان.

(١) يُراجع: الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، ص: ٢١ – ٢٢.

(٢) يُراجع: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د/ غانم قدوري الحمد، ص: ٣١٩.

الآية الثانية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [سورة الحجر: ٩].

بين- سبحانه- أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذي سبق للكافرين أن استهزءوا به، وبمن نزل عليه فقال- تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾، أي: إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذي أنكرتموه علىٰ قلب نبينا محمد -ﷺ- (وَإِنَّا لهذا القرآن لَحافِظُونَ) من كل ما يقدح فيه، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد علىٰ معارضته أو علىٰ الإتيان بسورة من مثله، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها(١).

والمتأمل في النظم القرآني الحكيم يلحظ أن الآية القرآنية المباركة (رد) لإنكارهم واستهزائهم، ولذلك أكده وقرره بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزا مباينا لكلام البشر، بحيث لا يخفىٰ تغيير نظمه علىٰ أهل اللسان، أو نفي تطرق الخلل إليه في الدوام بضمان الحفظ له كما نفي أن يطعن فيه بأنه المنزل له، وقيل الضمير في (لَهُ) للنبي -ﷺ-(٢).

وهو دلالة علىٰ أن الله سبحانه تكفل بحفظ كتابه؛ فلم يتمكن أحد من الزيادة في ألفاظه، ولا من النقص منها، فقد تكفل – تعالىٰ- بحفظه في كل وقت، فلا يعتريه

---

(١) يُراجع: تفسير الوسيط (٨/ ١٩).

(٢) يُراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٦٠م)، (٣/ ٢٠٧)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – (١٤١٨ هـ).

زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة؛ فإنه – تعالىٰ– لم يتكفل حفظها، بل أخبر– تعالىٰ– أن الربانيين والأحبار استحفظوها؛ ولذلك وقع فيها الاختلاف(١).

هذا ونحن ننظر في هذه الآية الكريمة، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرىٰ أن الله– تعالىٰ– قد حقق وعده في حفظ كتابه، **ومن مظاهر ذلك:**

١– أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن، ومن هزائم، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.. هذا الذي أصابهم في مختلف الأزمنة والأمكنة، لم يكن له أي أثر علىٰ قداسة القرآن الكريم، وعلىٰ صيانته من أي تحريف.

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله– تعالىٰ– قيض له في كل زمان ومكان، من أبناء هذه الأمة، من حفظه عن ظهر قلب، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي –ﷺ–، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر وفي كل عصر.

قال الفخر الرازي: فإن قيل: فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن في المصحف، وقد وعد الله بحفظه، وما حفظه الله فلا خوف عليه؟

فالجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله– تعالىٰ– إياه، فإنه– سبحانه– لما أن حفظه قيضهم لذلك (٢).

---

(١) يُراجع: البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، (٦/ ٤٦٧) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

(٢) يُراجع: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، (١٩/ ١٦٠).

٢- أن أعداء هذا الدين- سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم- امتدت أيديهم الأثيمة إلىٰ أحاديث النبي -ﷺ- فأدخلوا فيها ما ليس منها.

وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتننقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء.

ولكن هؤلاء الأعداء، لم يقدروا علىٰ شيء واحد، وهو إحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في الكتب السماوية السابقة.

والخلاصة، أن سلامة القرآن من أي تحريف- رغم حرص الأعداء علىٰ تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام، ورغم تطاول القرون والدهور- دليل ساطع علىٰ أن هناك قوة خارقة- خارجة عن قوة البشر- قد تولت حفظ هذا القرآن، وهذه القوة هي قوة الله-ﷻ- ولا يماري في ذلك إلا الجاحد الجهول.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية المباركة من أسرار بلاغية:

فالآية علىٰ قِصرها وقلَّة كلماتها التي ما تجاوزت عشر كلمات إلا أنها احتوت علىٰ العديد

من المعاني والدلالات التي أثرَت عملية الحفظ لهذا القرآن إثراءً، وهذا من أسرار النظم القرآني الذي أبهر العقول! فسبحان الله العظيم الذي أعجز كتابه.

من يدقق النظر يري أن الآية المباركة استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلام المستهزئين به.

جاء نشر الجوابين علىٰ عكس لف المقالين اهتماما بالابتداء برد المقال الثاني بما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام، ثم ثني العنان إلىٰ رد تعريضهم بالاستهزاء وسؤال رؤية الملائكة

وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر علىٰ الرسول – ﷺ– مجاراة لظاهر كلامهم.

والمقصود الرد عليهم في استهزائهم، فأكد الخبر بـ (إنا)، وضمير الفصل مع موافقته لما في الواقع، والتعبير بـ (إنا) دون غيرها؛ لبيان أنه خبر من عند الله.

–واحتوت الآية علىٰ عدة مؤكدات، وهي: (إنّ) الأولىٰ والثانية من قوله: ﴿إِنَّا﴾ وهو حرف

توكيد ونصب و(نا) ضمير في محل نصب (إنّ)، و ﴿نَحْنُ﴾ في موضع نصب علىٰ التوكيد (إن)، ويجوز أن تكون في موضع رفع علىٰ الابتداء[1].

وكذا اللام المزحلقة في كلمة: ﴿ لَحَٰفِظُونَ﴾ تفيد التوكيد.

فهذه المؤكدات في الآية فيها زيادة بيان ودلالة علىٰ قوة حفظ القرآن وكماله؛ ويفيد هذا بالمقابل بأن القرآن الكريم لن يتطرق إلىٰ أي نسبة من التحريف أو التبديل أو الزيادة أو النقص.

وصيغ الجمع في الآية والتعبير بلفظ العظمة والجلال يدل علىٰ أن هذا القرآن أُنزل من

عند الله – سبحانه– وأنه تكفل حفظه بنفسه منذ نزوله وإلىٰ قيام الساعة.

---

(١) يُراجع: إعراب القرآن، أبو جعفر محمد بن إسماعيل النحاس، ٢/ ٢٧٣، ط٦، عالم الكتب، (١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨م).

فقوله ﴿ إِنَّا ﴾، و﴿نَحْنُ﴾، و﴿نَزَّلْنَا﴾ كلها جاءت في سياق العظمة لتتناسب مع عظمة منْ سيحفظ وتؤكده.

وسبب التعبير بـ (نَزَّلْنَا) بالتضعيف، لقصد ما عُهد في التضعيف من تقوية معنىٰ الفعل؛ فالفعل المضعف يدل علىٰ تقوية الفعل، ويكون المقصود هنا بيان فضل القرآن وهيمنته علىٰ غيره من الكتب، ولفظة (نزل) تدل علىٰ التفريق، وأما لفظة (أنزل) فتدل علىٰ الجمع.

والسر البلاغي في تعريف (الذكر) هو التعظيم والتفخيم لشأنه.

ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم، بأن منزل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء؛ فجملة (وإنا له لحافظون) معترضة، والواو اعتراضية.

والضمير المجرور باللام عائد إلىٰ الذكر، واللام لتقوية عمل العامل لضعفه بالتأخير عن معموله.

وشمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغيير حتىٰ حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي – ﷺ– فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي –ﷺ– وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مِصْرٍ.

وسبك هاتين الجملتين من الدلالة علىٰ كمال الكبرياء والجلالة وعلىٰ فخامة شأن التنزيل ما لا يخفىٰ، وفي إيراد الثانية بالجملة الاسمية (وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ): دلالة علىٰ دوام الحفظ(١).

(١) يُراجع: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، (٥/ ٦٩).

وفيه توكيد أنه هو المنزل علىٰ القطع والبتات، وهو رد لإنكارهم واستهزائهم؛ ولذلك أكده من وجوه وقرره بقوله: (وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)، فلما قالوا علىٰ سبيل الاستهزاء: (يا أيها الذي نزل عليه الذكر)، رد عليهم بأنه هو المنزل عليه، فليس من قِبله ولا قِبل أحد، بل هو الله – تعالىٰ – الذي بعث به جبريل -عليه السلام- إلىٰ رسوله، وأكد ذلك بقوله: (إنا نحن) بدخول (إن) وبلفظ (نحن)، وهو تأكيد لاسم (إن)، ثم قال: (وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ).

– وقوله: (وإنا له لحافظون)، أي: من كل ما لا يليق به؛ فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا؛ فيكون وعيدا للمستهزئين.

واتصل قوله: (وإنا له لحافظون) بقوله: (إنا نحن نزلنا الذكر)؛ لأنه قد جعل ذلك دليلا علىٰ أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية، لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق علىٰ كل كلام سواه[1]).

والتعبير بـ (إنّا، ونحن) في الآية، ورد بصيغة الجمع، فالمولىٰ – عزوجل– يستخدم هذا الجمع للتعظيم، وهو لا يقصد أن معه شريكًا، وإنما لكثرة أسمائه، وجنوده من الملائكة، يقصد أنه أنزله بواسطة جبريل -عليه السلام- ليسوا بشركاء له – سبحانه–.

فإن صيغة الجمع في مثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، هي للتعظيم والإجلال، لا للتعدد.

وبراعة التقديم والتأخير في قوله ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فلم يقل (وإنا لحافظون له) إذ قدم المقصود بالحفظ وهو القرآن لأمرين:

(١) يُراجع: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٥٧٢)، وتفسير البيضاوي، (٣/ ٢٠٧).

الأمر الأول: للدلالة علىٰ تأكيد الحفظ وأولويته.

الأمر الثاني: مراعاة للفاصلة في جميع سورة الحجر المنتهية بحرف النون أو الميم، وهنا انتهت الآية بحرف النون في كلمة (لحافظون).

مِنْ تدبير الله لحفظ كتابه:-

نعلم أنَّ الله - تبارك وتعالىٰ- قد هَيَّأ للقرآن العظيم ظروفًا تختلف عن الكتب السَّابقة فَحَفِظَهُ دونها، ومن ذلك-:

أولًا: أُمَّةً قويةً في ذاكرتها وحافظتها؛ ذلك أنَّ العربَ الأوائل في جاهليتهم كانوا متمكِّنين من ذلك، حيث يروون ألوفًا من أبيات الشِّعر بغير تدوين، إنَّما يعتمدون في ذلك علىٰ الحفظ.

ثانيًا: أُمَّةً مستقرَّةً مُمكَّنةً في الحفظ، والفهم، والأمانة، فكان الحُفَّاظُ يحفظونه علىٰ يدي رسول الله- ﷺ- حتىٰ يُتْقِنُوا الحفظ، ثم يُدوِّنوه بعد ذلك، ويقف عليهم -ﷺ- بنفسه في مراجعة ذلك.

تعقيب وتأمل:

سر التعبير والدقة في اختيار لفظ (نزّل)، وليس (أنزل).

-نزّل (فعّل) يفيد الاهتمام والتوكيد والمبالغة أكثر من أنزل، فإذا كان السياق أو المقام فيه اهتمام وتوكيد ومبالغة يأتي بـ (نزّل)، وإذا كان دون ذلك يأتي بـ (أنزل).

- المتأمل في الآيات التي جاءت فيها صيغة (أنزل) يجد أنها جاءت بذكر النزول المطلق للقرآن وبنفس الصيغة جاءت الآيات التي تذكر نزول الكتب السماوية الأخرىٰ كالزبور وصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل ومعلوم أن هذه الكتب لما نزلت نزلت كاملة غير منجمة وأن القرآن نزل في ليلة القدر جملة واحدة كما هو

واضح في الآيات وكما ورد في السنة الصحيحة، ويكون هنا المعنىٰ فيها أن أنزل تكون لدلالة نزول القرآن جملة واحدة إلىٰ السماء الأولىٰ.

وأما صيغة (نزَّل) جاءت في نزوله بين الناس وكلام المشركين عنه وتكذيبهم له ومعلوم أن القرآن لم يكن بينهم كاملا وإنما كان ينزل منجما حسب الوقائع والأحداث.

ونزّل (فَعَّل) تأتي للتدرج كما تقول علّمه، التعليم لا يكون جملة واحدة وإنما يكون بتدرّج، أعلّمه مرة واحدة تعلّمه شيئًا معينًا.

لكن نزّل (فعّل) لا تأتي دائمًا للتدرج وقد تأتي لمعنىٰ التكثير والمبالغة وقد تأتي بنفس معنىٰ أنزل: عندما تقول: كرّمت الجامعة المتفوق الأول لا يعني التدرج وإنما مرة واحدة، نوع من التكريم والتعظيم والمبالغة، قدّمت زيداً وأخّرت عمرًا ليس فيه تدرجًا قد يكون المعنىٰ للتكثير أنه للمبالغة(١).

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الإنسان:٢٣]، وقال تعالىٰ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجر:٩].

- جاء ذكر كلمة (القرآن) في آية سورة الإنسان وكلمة (الذكر) في آية سورة الحجر؟

اسم الكتاب المنزّل علىٰ الرسول – ﷺ- هو (القرآن) ولم يرد في سورة الإنسان له ذكر إلا في هذا الموضع وهذه الآية :﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ [سورة الإنسان:٢٣]،. أما في سورة الحجر فقد ورد ذكر القرآن والذكر والآية في سورة

(١) يُراجع: لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، د/ حسام النعيمي، ٨/ ٤١، جامع الكتب الإسلامية.

الحجر ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [سورة الحجر:٦]. ثم قال تعالىٰ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [سورة الحجر:٩]. فلمّا سماه كفار قريش ذكراً ردّ عليهم الله تعالىٰ بكلمة (الذكر) ولهذا فهي أنسب للآية التي قبلها من استعمال كلمة القرآن رغم أنها وردت في سورة الحجر كثيراً(١).

والإعجاز في استعمال اسم: (الذِّكر) دون غيره من أسماء القرآن الكريم في الآية

يقول العلماء: "كثرة الأسماء دالَّة علىٰ شرف المسمَّىٰ(٢)"، فالله عظيم وله من الأسماء والصفات ما لاتحصىٰ.

وعليه لو افترضنا استعمال كلمة (القرآن) مكان كلمة (الذكر) في الآية فقلنا " إنا نحن نزلنا القرآن وإنا له لحافظون"؛ لاختل سياق الآية فليس في معنىٰ القراءة صفة التكرار، والمدوامة علىٰ المحفوظ مثل ما يفيده لفظ (الذكر)، فكان لاختيار الله – تعالىٰ – هذا اللفظ قمة في الإعجاز والبيان وروعة الأسلوب.

وبعد استقراء مصطلح: (حفظ) في آيات القرآن الدَّال علىٰ حفظ القرآن الكريم وُجد أنه لم

يُذكر هذا اللفظ إلا مّرة واحدة وهو في هذه الآية؛ فاقتران مسألة حفظ القرآن باسم: (الذكر) دون غيره يجعلنا نقف طويلاً متدبرين هذا الاستعمال ومتأملين؛

---

(١) يُراجع: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور / فاضل صالح السَّامرائي، ص:٣٢، الطبعة الخامسة / دار عمَّار للنشر والتوزيع – عمَّان – (١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م).

(٢) يُراجع: الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين السيوطي، (٢/ ٣٤٩)، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٦ هـ.

فالراجح عند علماء التخصص والباحثين المحققين أنه لاترادف في مفردات القرآن الكريم [١].

فكل مفردة فيه لها مدلولها، وبلاغتها، وسر اختيارها في سياق الآية ولا عجب فهو كلام الله – تعالىٰ – الذي يعلو ولا يعلىٰ عليه.

– وبتأمل النظم نلحظ سريان صوت النون في الآية المباركة، و يرىٰ علماؤنا الأوائلُ[٢] صوتَ النونِ مجهورًا متوسّطًا بينَ الشدّةِ والرخاوة منخفضًا مفتوحًا شديدَ الغُنّة، وقد وافقَ ابنُ منظور القدماءَ علىٰ أغلبِ صفاتِ هذا الصوت، حيث جعلَه صوتًا مجهورًا[٣] مُركّبًا بينَ الشدّةِ والرخاوة[٤] منخفضًا[٥] مفتوحًا[٦] شديدَ الغنّة[٧]؛ والغنّة تَعني أنْ يُشرَبَ صوتُ النونِ صوتَ الخيشوم[٨].

(١) يُراجع: الترادف في القرآن بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، ص: ٢٢٤، دمشق، دار الفكر، د.ط، ١٩٩٧م.

(٢) يُراجع: الكتاب: ٤/ ٤٣٤ – ٤٣٦، وسر صناعة الإعراب، تأليف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢ ه)، ١ / ٦٠ – ٦٢، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة: الأولي ١٤٢١ ه– ٢٠٠٠م.

(٣) يُنظر: اللسان: ج ه ر، ٤/ ١٥٠، و ١٣/ ٣.

(٤) يُنظر: السابق: ش د د، ٣/ ٢٣٣.

(٥) يُنظر: السابق: ع ل ا، ١٥/ ٨٤.

(٦) يُنظر: السابق: ط ب ق، ١٠/ ٢١٠.

(٧) يُنظر: اللسان: غ ن ن، ١٣/ ٣١٥، في الصوتيات العربية والغربية، د/ مصطفىٰ بو عناني، ص: ٤٩، الطبعة الأولىٰ، عالم الكتب الحديث ٢٠١٠م..

(٨) يُنظر: اللسان: غ ن ن، ١٣/ ٣١٥.

الآية الثالثة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٨٨].

يأمر الله- تعالىٰ- نبيه أن يتحدىٰ المشركين بهذا القرآن، والآية المباركة – موضع الدراسة-نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله – تعالىٰ-؛ فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلىٰ طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله(١).

ونلحظ هنا أن(هذه السورة مكية؛ فكان أكثر ما يمكن في هذه الآية أن يكون آخر المكي؛ فيختص التحدي به؛ وكان المظهر إذا أعيد مضمرا؛ أمكن فيه الخصوص؛ وكان المراد إنما هو الشمول؛ ومتىٰ أريد الشمول استؤنف له؛ إحاطة باستئناف إظهار محيط(٢).

أي: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء المشركين الذين قالوا- كما حكىٰ الله عنهم- (لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا)، قل لهم علىٰ سبيل التحدي والتعجيز: والله لئن اجتمعت الإنس والجن، واتفقوا علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، الذي أنزله الله- تعالىٰ- من عنده علىٰ قلبي.. لا يستطيعون ذلك.

ولو كان بعضهم لبعض مظاهرا ومعينا ومناصرا، في تحقيق ما يتمنونه من الإتيان بمثله.

---

(١) يُراجع: معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠ هـ)، (٣/ ١٥٨) دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة: الرابعة،(١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

(٢) يُراجع: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (١١/ ٥٠٨).

وخص- سبحانه- (الإنس والجن) بالذكر، لأن المنكر كون القرآن من عند الله، من جنسهما لا من جنس غيرهما كالملائكة- مثلا-، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولأن التحدي إنما هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول - ﷺ- إليهم، لهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم.

وقال- سبحانه-: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ فأظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول:

لا يأتون به، لدفع توهم أن يتبادر إلىٰ الذهن أن له مثلا معينا، وللإشعار بأن المقصود نفي المثل علىٰ أي صفة كانت هذه المثلية، سواء أكانت في بلاغته، أم في حسن نظمه، أم في إخباره عن المغيبات، أم في غير ذلك من وجوه إعجازه.

وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ معطوف علىٰ مقدر، أي: لا يستطيعون الإتيان بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا.

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله علىٰ أية حال من الأحوال وبأية صورة من الصور، لأنه متىٰ انتفىٰ إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة، انتفىٰ من باب الأولىٰ الإتيان بمثله مع عدمهما. وقوله:(لِبَعْضٍ) متعلق بقوله (ظَهِيراً)[1] .

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية الكريمة من أسرار بلاغية:

من يتأمل النظم هنا ويتفرس دقائقه يرىٰ أنه جاء في غاية الدقة والإحكام الأمر الذي يشهد لنظم القرآن الكريم بالتفرد والإتقان :

(١) يُراجع: تفسير الوسيط، (٨/ ٤٢٦).

نلمح في ضوء الآية الكريمة (استئناف للزيادة في الامتنان، وهو استئناف بياني لمضمون جملة ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾(١)، وافتتاحه بـ (قل) للاهتمام به، وهذا تنويه بشرف القرآن، فكان هذا التنويه امتنانا علىٰ الذين آمنوا به، وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديا بالعجز علىٰ الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه، وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارا، واللام موطئة للقسم.

وجملة﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ جواب القسم المحذوف، وجرد الجواب من اللام الغالب اقترانها بجواب القسم؛ كراهية اجتماع لامين: لام القسم، ولام النافية.

ومعنىٰ الاجتماع: الاتفاق واتحاد الرأي، أي لو تواردت عقول الإنس والجن علىٰ أن يأتي كل واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله، فهو اجتماع الرأي لا اجتماع التعاون، كما تدل عليه المبالغة في قوله بعده ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وذكر الجن مع الإنس؛ لقصد التعميم، وأيضا؛ لأن المتحدين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون علىٰ الأعمال العظيمة.

والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة، والمعاني، والآداب، والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي، والعلمي.

وفائدة هذه الجملة تأكيد معنىٰ الاجتماع المدلول بقوله﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أنه اجتماع تظافر علىٰ عمل واحد ومقصد واحد، وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن(٢).

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٧).

(٢) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، (١٥/ ٢٠٢).

وقوله﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم الموطأ له باللام، وجواب (إن) الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم.

ومِمَّا هو جليٌّ أيضـًا أنّ تكرار لفظ (مثل) في قوله: (لا يأتون بمثله) علىٰ سبيل التأكيد والتوضيح، وأن المراد منهم أن يأتوا بمثله؛ إذ قد يراد بمثل الشيء في موضع الشيء نفسه؛ فبين بتكرار(بمثله)، ولم يكن التركيب: (لا يأتون به)؛ رفعا لهذا الاحتمال، وأن المطلوب منهم أن يأتوا بالمثل لا أن يأتوا بالقرآن.

وجملة﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ في موقع الحال من ضمير ﴿لَا يَأْتُونَ﴾

و(لو) وصلية، وهي تفيد أن ما بعدها مظنة ألا يشمله ما قبلها.

والظهير: المعين، والمعنىٰ: ولو تعاون الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك متفرقين ؟

تعقيب:

من ملامح الإعجاز البلاغي في الآيات.-

ويمكن أن نخلص من خلال تحليلنا البلاغي لآيات العطايا الربانية للأمة المحمدية في شريعتها وكتابها إلى ما يأتي-:

أولًا: أظهرت الآيات الكريمة مدىٰ خيرية الأمة المحمدية، وسماحة شريعتها.

ثانيا: ظهر من خلال التحليل والتأمل أن معاني (الذِّكر) وصوره في القرآن الكريم كثيرة ثرية تقوي استعماله في الآية أكثر من غيره من أسماء القرآن الكريم، وهو اللفظ المناسب والأقوىٰ لسياق الآية – موضع الدراسة –

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [سورة الحجر: ٩].، ويناسب كلمة ﴿ لَحَٰفِظُونَ﴾ الدالة علىٰ حفظ القرآن الكريم.

ثالثا: تلاؤم الألفاظ وانسجامها مع بعضها البعض والدقة المتناهية في اختيار المعارف والنكرات والأفعال.

رابعا: في المستوىٰ التركيبي: تعددت أساليب الآيات عن المقاصد كالتوكيد، والقصر، والحذف والتكرار وغيرها مع مراعاة حسن الصياغة.

خامسا: في المستوىٰ البياني: كان التعبير عن المقاصد سواء عن طريق التشبيه أم الاستعارة تعبيراً دقيقًا يفي بالغرض ويدل علىٰ المعنىٰ دلالة واضحة لا لبس فيه ولا إبهام بالإضافة إلىٰ عدم خضوع تشبيهات الآيات الكريمة إلىٰ بيئة معينة فأسلوب القرآن الكريم ممتد عبر الزمان والمكان والبيئات.

سادسا: انحصرت الفنون البديعية في المقابلة، والطباق.

سابعا: تكرار صوت الراء، والشين، والنون في النظم القرآني.

ومن بلاغة هذه الآيات كذلك مجيئها مُحكَمةُ الصِّياغة، والنسيجِ اللغوي للمعاني التي تضمَّنتها هذه الصياغة، إذ " إنَّ مدار البلاغة ومبناها إنما هو رعاية جانب المعنىٰ وجزالته، ثم تطبيق اللفظ علىٰ ما يقتضيه المقام " [(١)]، ومن المعلوم عدم انفصال اللفظ عن المعنىٰ، ومن المعلوم كذلك أنَّ بلاغة القول تقتضي إيجاز العبارة، وكثافة الدِّلالة، وكُلٌّ من الإحكام والإيجاز من سِمات البلاغة القرآنية، تلك السِّمات التي تُعدُّ خصائص أصيلة في القرآن الكريم.

وإجمال القول أن الأساليب البلاغية قد أسهمت في التأكيد علىٰ اختصاص الأمة المحمدية بخصائص عظيمة علىٰ سائر الأمم في شريعتها، وكتابها.

وبعد أن انتهيت من سياقات العطايا الربانية للأمة المحمدية في الكتاب، والشريعة أنتقل إلىٰ العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها وأسرارها البلاغية في النظم القرآني.

---

(١) يُراجع: حاشية شيخ زاده، (١/ ٧٩- ٨٠).

المبحث الثاني

(من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها في ضوء النظم القرآني).

ويشتمل على-:

الصورة الأولى:

في مقام اجتباء واصطفاء الله – تعالى- للأمة المحمدية.

الصورة الثانية:

في مقام تقرير نبوة الرسول -ﷺ- وكونه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده.

الصورة الثالثة:

في مقام معجزة الإسراء والمعراج.

الصورة الرابعة:

في مقام معجزة شق صدر النبي – ﷺ-.

توطئة

يعتبر اختيار الله- تعالىٰ- للأمة المحمدية وارتباطها برسالة الإسلام بمثابة عطية إلهية، حيث اختار الله هذه الأمة لتكون حاملة لرسالته وسفيرة للهداية في الأرض؛ بإرسال محمد -ﷺ-، ختم الله سلسلة الأنبياء، مما يجعل رسالته خاتمة للهداية والتوجيه، ويُبرز هذا الاختتام كتتويج للرحمة والهدايا الإلهية.

وأنزل القرآن الكريم كهدية للأمة المحمدية، وفيه معجزات تدل علىٰ صدق رسالة نبيه.

من هذه المعجزات الإسراء والمعراج، وشق صدر النبي – ﷺ-.

وجاءت رسالة الإسلام والقرآن بشمولية تشريعية وأخلاقية، تلبي احتياجات الإنسان في جميع جوانب حياته، مما يجعلها عطية ربانية للأمة المحمدية.

الآيات موضع الدراسة-:

الآية الأولى

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[سورة آل عمران: ١١٠].

الآية الثانية

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

ثانيًا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

ثالثًا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[سورة الإسراء: ١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة النجم: ١٣-١٨].

رابعًا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[سورة الشرح: ١-٤].

وسوف يتناول المبحث الثاني الآيات - موضع الدراسة- بالشرح والتحليل، واستخراج أسرارها البلاغية الكامنة في ضوء النظم القرآني من خلال الصفحات الآتية.

المبحث الثاني:

(من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها في ضوء النظم القرآني).

الصورة الأولى: (في مقام اجتباء واصطفاء الله – تعالى - للأمة المحمدية) .

الآية الأولى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[سورة آل عمران: ١١٠].

بالتأمل في سياق الآية الكريمة نلحظ أنها (دليل علىٰ حجية الإجماع وعصمة الأمة من الخطأ؛ فإن (الألف واللام) في لفظ (بالمعروف) ولفظ (المنكر) يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عن كل منكر، ومتىٰ كانوا كذلك كان إجماعهم حقا وصدقا لا محالة[(١)].

ومن اللطائف القرآنية في الآية أن تتجلىٰ(فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنهما أساس خيرية الأمة وأفضليتها علىٰ غيرها، ومناط رفعتها، وأن خيرية الأمة وفضلها علىٰ غيرها، تكونبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتضمن لدعوة الخلق إلىٰ الله وجهادهم علىٰ ذلك، ولا توجد الأمة وجوداً حقيقياً إلا بتوفر هذه السمة، فكلما وجدت هذه الفريضة في الأمة وجد الخير فيها، وكلما ضعفت فيها ضعف الخير[(٢)].

وبالتأمل في وجه مناسبة الآية لما قبلها يتبين لنا أن الآية السابقة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٠٤].، جاءت أمراً منه – تعالىٰ– لهذه الأمة،

---

(١) يُراجع: مفاتيح الغيب، (٨/ ٣٢٥)، والتحرير والتنوير، (٤/ ٥٢).

(٢) يُراجع: تفسير القرطبي، (٤/ ١٧٣)، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، (٤/ ٥٥)، وتفسير ابن عثيمين– سورة آل عمران)، (٢/ ٥٣).

والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به؛ أخبر في هذه الآية أن هذه الأمة المحمدية قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربها، واستحقت الفضل علىٰ سائر الأمم(١).

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية الكريمة من أسرار بلاغية:

والمتأمل في الآية الكريمة يرىٰ فيها من الدقائق والأسرار مايحتاج إلىٰ بيان:

نلمح في ضوء قوله﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين علىٰ ما هم عليه من الاتفاق علىٰ الحق والدعوة إلىٰ الخير، و "كنتم" من كان الناقصة التي تدل علىٰ تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة علىٰ عدم سابق أو لاحق كما في قوله تعالىٰ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقيل: كنتم كذلك في علم الله – تعالىٰ– أو في اللوح أو فيما بين الأمم السالفة.

وقوله﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿أُمَّةٍ﴾ واللام متعلقة بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أي: أظهرت لهم. وقيل: بخير أمة، أي: كنتم خير الناس للناس، فهو صريح في أن الخيرية بمعنىٰ النفع للناس(٢).

وتأمل البناء للمجهول في قوله ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أن الله -ﷻ- أخرجها علىٰ نمط معيّن كما يريد ولم تخرج من تلقاء نفسها كما تخرج الحشائش والأدغال في النبات.

الزارع ينتقي ويعلم ما يزرع، وهذه الأمة أُخرِجت إخراجًا إلىٰ الناس ولم تخرج من تلقاء نفسها وفق منهج معين معدّ واختيار دقيق، فهذه الأمة أُخرجت بهذا المنهج لهذا الغرض للناس كافة.

---

(١) يُراجع: تفسير السعدي، ص: ١٤٣.

(٢) يُراجع: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، (٢/ ٧١).

هذا، ومِمَّا يستوقفنا كذلك التعبير بـ ﴿ أُمَّةٍ ﴾ (عموم الأمم كلها علىٰ ما هو المعروف في إضافة أفعل التفضيل إلىٰ النكرة أن تكون للجنس، فتفيد الاستغراق(١) .

واللافت في النظم القرآني هو بلاغة (الإيجاز؛ حيث اكتفىٰ بذكر الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالنبوة مع أنه لا بد منه؛ لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة؛ لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقا، والإيمان بكونه صادقا لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز علىٰ وفق دعواه صادقا، وكان الاقتصار علىٰ ذكر الإيمان بالله تنبيها علىٰ هذه الدقيقة(٢).

وأوثر التعبير (بصيغة الاستقبال (تأمرون، وتَنْهون)؛ للدلالة علىٰ الاستمرار، والخطاب وإن كان خاصا بمن شاهد الوحي من المؤمنين، لكن حكمه عام للكل(٣).

وقوله ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ فيه (تعريض بأهل الكتاب من اليهود وغيرهم أنهم متوقفون في اتباع الإسلام، مع إمكان تحصيلهم علىٰ هذا الفضل(٤).

وقوله ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، والألف واللام في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ، ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يدل علىٰ (المبالغة والكمال في الوصفين، وذلك ظاهر؛ لأن من آمن بكتابه وبالقرآن فهو كامل في إيمانه، ومن كذب بكتابه إذ لم يتبع ما

---

(١) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٤/ ٥٠).

(٢) يُراجع: تفسير الرازي، (٨/ ٣٢٦)، والبحر المحيط لأبي حيان، (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُراجع: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، (٢/ ٧١).

(٤) يُراجع: التحرير والتنوير، (٤/ ٥٢).

تضمنه من الإيمان برسول الله، وكذب بالقرآن فهو أيضا كامل في فسقه متمرد في كفره(١).

وجملة ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة علىٰ انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم، كأنه قيل: هل منهم من آمن أو كلهم علىٰ الكفر، فقيل: منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وينتهي سياق الآية بقوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود.

ومن خلال التحليل للآية الكريمة يمكن أن نخلص إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القطب الأعظم في هذا الدين، والمهمة الكبرىٰ للأنبياء والمرسلين والصالحين، بل قد عدَّه بضع أهل العلم ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، كل ذلك لما يشتمل عليه من الفضل العظيم، والخير العميم، والفوائد والمصالح العاجلة والآجلة، ولما يترتب علىٰ تركه من استشراء الباطل وانتشار الفساد، وغلبة المعاصي وهيمنتها، وهي الجالبة لسخط الله، المنذرة بمقت الله وعاجل عقوبته علىٰ الأفراد والأمم.

(١) يُراجع: البحر المحيط، (٣/ ٣٠٣).

الآية الثانية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

ابتدأت الآية ببشارة كبيرة لهذه الأمة؛ إذ قد وعدوا علىٰ اختلاف أحوالهم، من الظلم والقصد والمسابقة معا: بالجنة.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولا، وأحسنهم أفكارا، وأرقهم قلوبا، وأزكاهم أنفسا، اصطفاهم الله- تعالىٰ-، واصطفىٰ لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن علىٰ سائر الكتب. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ وهم هذه الأمة.

ثم تمضي بنا الآية لبيان أحوالهم ﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ بالمعاصي، (التي) هي دون الكفر.

والتعبير بقوله﴿ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ ﴾ مقتصر علىٰ ما يجب عليه، تارك للمحرم.

وتأمل هذا التدرج في السياق في قوله ﴿ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه اللّه – تعالىٰ-، لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتىٰ الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب، وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ راجع إلىٰ السابق إلىٰ الخيرات، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلىٰ الخيرات إلا بتوفيق اللّه – تعالىٰ- ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر اللّه – تعالىٰ- علىٰ ما أنعم به عليه.

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي: وراثة الكتاب الجليل، لمن اصطفىٰ – تعالىٰ- من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم علىٰ الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثة هذا الكتاب(١).

وقوله ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فيه وجهان، أحدهما: إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتوريثه.

أو قال: ﴿ أَوْرَثْنَا ﴾ وهو يريد نورثه، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ﴾ وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلىٰ يوم القيامة، لأن الله اصطفاهم علىٰ سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء علىٰ الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلىٰ أفضل رسل الله، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلىٰ ظالم لنفسه مجرم وهو المرجئ لأمر الله، ومقتصد: هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وسابق من السابقين.

والوجه الثاني: أنه قدم إرساله في كل أمّة رسولا وأنهم كذبوا برسلهم وقد جاءوهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ثم قال: (إنّ الذين يتلون كتاب الله)، فأثنىٰ علىٰ (التالين) لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم(٢).

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية المباركة من أسرار بلاغية:

---

(١) يُراجع: تفسير السعدي، (١/ ٦٨٩) بتصرف.

(٢) يُراجع: تفسير الكشاف للزمخشري، (٣/ ٦١٣).

استهلت الآية بقوله (ثُمَّ) للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل فهي هنا لعطف الجمل عطفا ذكريا، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات، فهذه الجملة كالمستأنفة، و(ثُمَّ) للترقي في الاستئناف.

وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمن التنويه بالرسول -ﷺ- وعروج في مسرته وتبشيره، فبعد أن ذكر بفضيلة كتابه وهو أمر قد تقرر لديه زيد تبشيرا بدوام كتابه وإيتائه أمة هم المصطفون من عباد الله- تعالىٰ-، وتبشيره بأنهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم.

وهذه البشارة أهم عند النبي -ﷺ- من الإخبار بأن القرآن حق مصدق لما بين يديه، لأن هذه البشارة لم تكن معلومة عنده فوقعها أهم.

وقيل: في (ثم) - الدالة علىٰ التراخي- إشارة إلىٰ الفترة بين عيسىٰ ومحمد -ﷺ-.

علىٰ القول بأن (ثم) هنا تقتضي التراخي في الزمان، وأن يقال: (ثم نورثه بعدك المصطفين)، فمجيء (أورثنا) ماضيا: معناه: حكمنا بتوريثه منك، أو نورثه، فعبر عنه بالماضي؛ لتحققه وتقرره، أو: أورثناه من الأمم السالفة، أو وضع الماضي موضع المستقبل؛ تنزيلا لما هو الكائن بمنزلة الكائن، وعلىٰ هذا الوجه يكون أورثنا ماضيا يجري علىٰ ظاهره، والعطف علىٰ إن الذين يتلون، والذي أوحينا إليك اعتراض؛ لبيان كيفية التوريث(١) .

وتظهر بلاغة اللفظة القرآنية في هذه الآية جلية، فتجد النظم القرآني قد عبر بـ (الإرث) دون غيره، ففي الإيراث معنىٰ الإعطاء.

(١) يُراجع: تفسير البيضاوي، (٤/ ٢٥٩)، وإرشاد العقل السليم، (٧/ ١٥٢- ١٥٣).

وبالنظر والتدبر تجد أنه لما أريد تعميم البشارة مع بيان أنهم مراتب فيما بشروا به جيء بالتفريع في قوله ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ إلىٰ آخره، فهو تفصيل لمراتب المصطفين لتشمل البشارة جميع أصنافهم ولا يظن أن الظالم لنفسه محروم منها، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام وهو الانقياد بالقول والاستسلام، وقدم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلا لمسرته.

وأَوْرَثْنَا) أىٰ أعطينا ومنحنا، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره.)

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة، وهو المفعول الثاني (لأورثنا)، وقدم علىٰ المفعول الأول، وهو الموصول للتشريف.

(واصْطَفَيْنا) بمعنىٰ اخترنا واستخلصنا، واشتقاقه من الصفو، بمعنىٰ الخلوص من الكدر والشوائب، وفي التعبير بالاصطفاء، تنويه بفضل هؤلاء العباد، وإشارة إلىٰ فضلهم علىٰ غيرهم، كما أن التعبير بالماضي يدل علىٰ تحقق هذا الاصطفاء.

وعبر بـ (واصْطَفَيْنا) ولم يقل: (واجتبينا) أو (واخترنا)؛ لأن الاصْطِفَاءُ: تناولُ صَفْوِ الشيءِ، كما أنّ الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته.

واصْطِفَاءُ اللهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده – تعالىٰ– إيّاه صَافِيًا عن الشّوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعرّ ذلك من الأوّل(١).

وبناءً على ذلك، فالاصطفاء في حق الرسل من البشر هو:

انتقاء صفوة الخلق، فهم الأصفىٰ والأرقىٰ والأكمل والأبعد عن النقص والخلل وعن كل باطل وضلال وغير ذلك.

---

(١) يُراجع: المفردات في غريب القرآن، لأبي حاتم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ٢/ ٤٨٨، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ،١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م.

فبتأمل سياقات الاصطفاء والاجتباء والاختيار نجد أن الاصطفاء من أفعال الله – تعالىٰ– وحده، وتكون غالبًا في حق الأنبياء، وهو بمعنىٰ انتقاء صفو الشيء وخالصه.

ثم قسم– سبحانه– هؤلاء العباد إلىٰ ثلاثة أقسام فقال: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة، تعود إلىٰ أفراد هذه الأمة الإسلامية.

وأن المراد بالظالم لنفسه، من زادت سيئاته علىٰ حسناته.

وأن المراد بالمقتصد: من تساوت حسناته مع سيئاته.

وأن المراد بالسابقين بالخيرات: من زادت حسناتهم علىٰ سيئاتهم.

وعلىٰ هذا يكون الضمير في قوله– تعالىٰ– بعد ذلك: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها).

يعود إلىٰ تلك الأقسام الثلاثة، لأنهم جميعا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته.

وتقديم الظالم لنفسه علىٰ المقتصد وعلىٰ السابق بالخيرات لا يقتضي تشريفا، ولعل السر في مجيء هذه الأقسام بهذا الترتيب، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عددا، ويليهم المقتصدون، ويليهم السابقون بالخيرات (١).

وفي التعبير بالفاء في قوله ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ تفصيل لأحوال الذين أورثوا الكتاب أي أعطوا القرآن، وضمير (مِنْهُم) الأظهر أنه عائد إلىٰ ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنا﴾، وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين وقيل هو عائد إلىٰ عبادنا أي ومن عبادنا علىٰ الإطلاق.

---

(١) يُراجع: تفسير الوسيط لطنطاوي، (١١/ ٣٨٤).

وذكر (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا) بإسناد الفعلين إلىٰ نفسه – تعالىٰ– وهذا في مقام التكريم ثم ذكر الاصطفاء بالذات وهو من باب التكريم أيضًا، و(اصطفاهم) هذا تكريم والتكريم الآخر هو الإسناد في قوله (أورثنا).

وقدم ذكر الظالم لنفسه؛ لدفع توهم حرمانه من الجنة، وتعجيلا لمسرته؛ فهذا المقام أظهر الله فيه كرمه وشدة رحمته ولطفه بعباده، وتعظيم هذا القرآن العظيم، وقوة آثاره علىٰ من أورثهم إياه بدخول الجنة؛ فلذا قدم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله فيحبط.

و اللام في (لنفسه) لام التقوية لأن العامل فرع في العمل إذ هو اسم فاعل.

وقدم الظالم، ثم المقتصد، ثم السابق؛ للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل، ولأن الظلم بمعنىٰ الجهل والركون إلىٰ الهوىٰ مقتضىٰ الجبلة، والاقتصاد والسبق عارضان، وقيل: ختم بالسابقين؛ لأنهم الخلاصة، وليكونوا أقرب إلىٰ الجنات، فهو سبحانه تارة يبدأ بالأدنىٰ، وتارة بالأعلىٰ؛ بحسب ما يقتضيه الحال(١).

والمقتصد: هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبائر ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها وقد يلمون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهىٰ القربات الرافعة للدرجات، فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام، فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق علم أنه مرتكب حالة بين تينك الحالتين فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق، والسابق أصله: الواصل إلىٰ غاية معينة قبل غيره من الماشين إليها.

(١) يُراجع: نظم الدرر للبقاعي، (١٦/ ٥٦).

وهو هنا مجاز لإحراز الفضل لأن السابق يحرز السبق (بفتح الباء)، أو مجاز في بذل العناية لنوال رضا الله، وعلىٰ الاعتبارين في المجاز فهو مكني عن الإكثار من الخير لأن السبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار.

وقسّم – تعالىٰ- المصطفين إلىٰ قسمين (مقتصد) و(سابق بالخيرات) ذكر السابقين وهم أعلىٰ المكلفين.

والخيرات: جمع خير علىٰ غير قياس، والخير: النافع. والمراد بها هنا الطاعات لأنها أعمال صالحة نافعة لعاملها وللناس بآثارها.

والباء للظرفية، أي في الخيرات، ولك أن تجعل الباء للملابسة وتجعلها ظرفا مستقرا في موضع الحال من (سابق) أي متلبسا بإذن الله، ويكون الإذن مصدرا بمعنىٰ المفعول، أي سابق ملابس لما أذن الله به، أي لم يخالفه، وعلىٰ الوجه الأول هو تنويه بالسابقين بأن سبقهم كان بعون من الله وتيسير منه.

و اختتمت الآية بالإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ إلىٰ الاصطفاء المفهوم من ﴿اصْطَفَيْنا﴾ أو إلىٰ المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب،وما فيه من معنىٰ البعد مع قرب العهد بالمشار إليه؛ للإشعار بعلو رتبته، وبعد منزلته في الشرف.

واسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ يعود إلىٰ ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء.

أي: ذلك الذي أعطيناه- أيها الرسول الكريم- لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب، هو الفضل الواسع الكبير، الذي لا يقادر قدره، ولا يعرف كنهه إلا الله- تعالىٰ-.

والفضل: الزيادة في الخير، والكبير مراد به ذو العظم المعنوي وهو الشرف وهو فضل الخروج من الكفر إلىٰ الإيمان والإسلام، وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلىٰ: ظالم، ومقتصد، وسابق، وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل، ووجه هذا الانحصار أن هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة(١).

والمنعم نظره في قوله تعالىٰ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ يناسب الزيادة، لأن هذا الفضل يقتضي الزيادة.

وبالنظر في نظم الآية بدا لي لون بديعي خلاب للأنظار، ولافت للعقول يُعرف بالجمع مع التقسيم(٢)، والتقسيم من أكثر ألوان التعبير القرآني إعجازا في الأداء والتفصيل والحصر.

والتقسيم فن بياني عربي اختص به الكلام العربي البديع متمثلا في أرفع مستوياته الإعجازية في التعبير القرآني.

(١) يُراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٢٢/ ٣٠٩).

(٢) وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم ثم يقسم ما جمعه، أو يقسم أولا ثم يجمع، يُراجع: إعراب القرآن وبيانه لدرويش، (٨/ ١٥٧).

الصورة الثانية: (في مقام تقرير نبوة الرسول -ﷺ- وكونه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[سورة الأحزاب: ٤٠].

استهلت الآية بمخاطبة من الله – تعالىٰ– لجميع الأمة، أعلمهم أنه لا حرج علىٰ رسول الله -ﷺ- في نيل ما فرض الله له وأباحه، من تزويج زينب بعد زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء، من أن ينالوا ما أحل الله لهم(١).

ووجه مناسبتها لما قبلها: لما بين الله ما في تزويج النبي -عليه السلام- بزينب من الفوائد؛ بين أنه كان خاليا من وجوه المفاسد؛ وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا في التزوج بزوجة الابن فإنه غير جائز، فقال الله– تعالىٰ–: إن زيدا لم يكن ابنًا له،بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد(٢).

فالآية لا تزال تعالج أمر زواج الرسول – ﷺ – من زينب عن طريق مباشر، وتبين أنه لاغرابة في هذا الزواج، فإن محمدًا لم يكن أبا أحد منكم، حتىٰ تحرم عليه زوجه، وإنما صلته بكم جميعًا صلة الداعي إلىٰ الله بمن يدعوهم، ثم إن صلته هذه ستظل باقية بقاء الدنيا، لأنه لانبي بعده.

ولما أفاد هذا كله أن الدعي ليس ابنا، وكانوا قد قالوا لما تزوج زينب كما رواه الترمذي عن عائشة –رضي الله عنها–: تزوج حليلة ابنه، أخبر به سبحانه علىٰ وجه هو من أعلام النبوة وأعظم دلائل الرسالة فقال: ﴿ ما كانَ﴾ أي بوجه من الوجوه مطلقًا

---

(١) يُراجع: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٤/ ٣٨٨)، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م.

(٢) يُراجع: التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، (٢٥/ ١٧١)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ (١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م).

كون ﴿ مُحَمَّدٌ﴾ أي علىٰ كثرة نسائه وأولاده ﴿ أبا أَحَدٍ مِن رِجالِكُمْ﴾ لا مجازا بالتبني ولا حقيقة بالولادة، ليثبت بذلك أن تحرم عليه زوجة الابن، ولم يقل: من بنيكم، وإن لم يكن له في ذلك الوقت وهو سنة خمس وما دناها ابن، ذكر لعلمه- سبحانه- أنه سيولد له ابنه إبراهيم -عليه السلام-، ومع ما كان قبله من البنين الذين لم يبلغ أحد منهم الحلم - علىٰ جميعهم الصلاة والسلام- .

ولما كان بين كونه -صلى الله عليه وسلم- أبا لأحد من الرجال حقيقة وبين كونه خاتما منافاة قال: ﴿ ولَكِنْ﴾ كان في علم الله غيبا وشهادة أنه ﴿ رَسُولَ اللهِ﴾ الملك الأعظم الذي كل من سواه عبده، فبينكم وبين رسوله من جهة مطلق الرسالة أبوة وبنوة مجازية، أما من جهته فبالرأفة والرحمة والتربية والنصيحة من غير أن تحرم عليه تلك البنوة شيئا من نسائكم وإلا لم يكن لمنصب النبوة مزية، وأما من جهتكم فبوجوب التعظيم والتوقير والطاعة وحرمة الأزواج، وأما كون الرسالة عن الله الذي لا أعظم منه فهو مقتض لأن يبلغ الناس عنه جميع ما أمره به.

ووظيفته الشريفة مقتضية لأن يكون أول مؤتمر بهذا الأمر، فهو لا يدعو أحداً من رجالكم بعد هذا ابنه.

ولما لم يكن مطلق النبوة ولا مطلق الرسالة منافيا لأبوة الرجال قال: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي لأن رسالته عامة ونبوته معها إعجاز القرآن، فلا حاجة مع ذلك إلىٰ استنباء ولا إرسال، فلا يولد بعده من يكون نبيا، وذلك مقتض لئلا يبلغ له ولد يولد منه مبلغ الرجال، ولو قضي أن يكون بعده نبي لما كان إلا من نسله إكراما له لأنه أعلىٰ النبيين رتبة وأعظمهم شرفًا، وليس لأحد من الأنبياء كرامة إلا وله مثلها أو

أعظم منها، ولو صار أحد من ولده رجلا لكان نبيا بعد ظهور نبوته، وقد قضىٰ الله ألا يكون بعده نبي إكراما له.

والحاصل أنه لا يأتي بعده نبي بشرع جديد مطلقا ولا يتجدد بعده أيضا استنباء نبي مطلقا، فقد آل الأمر إلىٰ أن التقدير: ما كان محمد بحيث يتجدد بعده نبوة برسالة ولا غيرها ولكنه كان مع أنه رسول الله ختاما للنبوة غير أنه سيق علىٰ الوجه المعجز لما تقدم من النكت وغيرها، وهذه الآية مثبتة لكونه خاتما علىٰ أبلغ وجه وأعظمه، وذلك أنها في سياق الإنكار لأن يكون بنيه أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية بغير جهة الإدلاء بأنثىٰ أو كونه رسولا وخاتما، صونا لمقام النبوة أن يتجدد بعده لأحد لأنه لو كان ذلك بشر لم يكن إلا ولدا له، وإنما أوثرت إماتة أولاده عليه -الصلاة والسلام- وتأثير قلبه الشريف بها إعلاء لمقامه أن يتسنمه أحد كائنا من كان، وذلك لأن فائدة إتيان النبي تتميم شيء لم يأت به من قبله، وقد حصل به -ﷺ- التمام فلم يبق بعد ذلك مرام.

ولما كان المقام في هذا البت بأنه لا يكون له ولد يصير رجلا مقام إحاطة العلم، كان التقدير: لأنه – سبحانه- أحاط علما بأنه علىٰ كثرة نسائه وتعدد أولاده لا يولد له ولد ذكر فيصير رجلا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له كل صفة كمال أزلا وأبدا ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من ذلك وغيره ﴿ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بالختم ومن يليق بالبدء[1]، أي: وكان-ﷻ- وما زال، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه، وبما ينفعهم ويصلحهم، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم في حاجة إليه من تشريعات، واختار

(١) يُراجع: نظم الدرر للبقاعي، (١٥/ ٣٦٣).

رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة، ليزيدكم- سبحانه- من فضله وإحسانه.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية المباركة من أسرار بلاغية:

إنَّ في نظم الآية من الأسرار والدقائق مايحتاج إلىٰ بيان، وأول هذه الخصائص أن صدرت الآية بقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ وهو (استئناف؛ للتصريح بإبطال أقوال المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، وما يلقيه اليهود في نفوس الناس من الشك[1].

وفيه ما يعرف بالتلفيف[2]؛ فإن قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ جواب عن سؤال مقدر؛ وهو قول قائل: أليس محمد أبا زيد بن حارثة؟ فأتىٰ الجواب يقول: ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، وكان مقتضىٰ الجواب أن يقول: ما كان محمد أبا زيد، وكان يكفي أن يقول ذلك، ولكنه عدل عنه ترشيحا للإخبار بأن محمدا -ﷺ- خاتم النبيين، ولا يتم هذا الترشيح إلا بنفي أبوته لأحد من الرجال؛ فإنه لا يكون خاتم النبيين إلا بشرط ألا يكون له ولد قد بلغ، فلا يرد أن له الطاهر والطيب والقاسم؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال، ثم احتاط لذلك بقوله: (مِّن

---

(١) يُراجع: تفسير ابن عاشور، (٢٢/ ٤٤)..

(٢) التلفيف: هو إخراج الكلام مخرج التعليم، وهو أن يقع السؤال عن نوع من الأنواع مع كون الحاجة داعية لبيان جميعها، فيجاب بجواب عام عن المسئول عنه، وعن غيره؛ ليبنىٰ علىٰ عمومه ما بعده من الصفات المقصودة، يُراجع: عروس الأفراح للسبكي، (٢/ ٣١٠)، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش، (٨/ ٢٧).

رِّجَالِكُمْ)، فأضاف الرجال إليهم لا إليه؛ فالتفت المعنىٰ الخاص في المعنىٰ العام، وأفاد نفي الأبوة الكلية (لأحد) (من رجالهم)، وانطوىٰ في ذلك نفي الأبوة لزيد.

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا التفات إلىٰ كونه جدا للحسن، والحسين، ومحسن أبناء ابنته فاطمة -رضي الله عنها- إذ ليس ذلك بمقصود، ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنىٰ الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.

وبالنظر نرىٰ أن الرسول -ﷺ- ذُكر هنا باسمه (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ) مع أنه يُذكر بوصف النبوة في مواقع كثيرة من هذه السورة، وربما كان ذكره بلفظ (محمد) في هذه الآية لأنهم كانوا يقولون: زيد بن محمد، قبل نزول قوله :﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب:٥]، فأراد أن ينص علىٰ نفي ذلك، ولأن نفي محظورات البنوة الحقيقة عن بنوة التبني أمراً ليس خاصًا بالنبي بوصفه نبيًا، حتىٰ يذكر- عليه الصلاة والسلام - بوصفها، وإنما الذي ينطبق علىٰ محمد بوصفه رجلًا منكم لابوصفه نبيًا، ينطبق علىٰ جميعكم، فكما حلَّت له زوجة مُتبنَّاه لأنه ليس من صلبه، كذلك يحل لكم جميعًا أزواج أدعيائكم؛ فالسياق هنا مخالف لسياق: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الأحزاب:٣٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأحزاب:٤٥][(١)]؛ لارتباط الأخيرين بوصف النبوة، وهذا واضح[(٢)] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٨،٤٥).

(٢) يُراجع: من أسرار التعبير القرآني. دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، (٣٥٢- ٣٥٣)، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة (١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م).

وقد جمعت الآية في نظمها تلفيفا آخر؛ وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، حيث عدل عن لفظ (نبي) إلىٰ لفظة (رسول)؛ لزيادة المدح؛ لأن كل رسول نبي، ولا عكس علىٰ أحد القولين، فهذا تلفيف بعد تلفيف.

وتعريف المسند إليه بالعلمية في قوله ﴿مُحَمَّدٌ﴾ لقصد التسجيل علىٰ السامع؛ حتىٰ لا يكون له سبيل إلىٰ الإنكار.

والنظم القرآني في قوله ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وصف لـ (أحد)، وهو احتراس؛ لأن النبي -ﷺ- أبو بنات، فلم يعش أحد من أولاده الذكور.

وإضافة (رجال) إلىٰ ضمير المخاطبين، والعدول عن تعريفه باللام؛ لقصد توجيه الخطاب إلىٰ الخائضين في قضية تزوج زينب؛ إخراجا للكلام في صيغة التغليط، ولإخراج من كان من بنيه؛ لأنهم رجاله، لا رجال المخاطبين.

واستدراك قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة؛ فذكروا أنه رسول الله -ﷺ-؛ فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبي مع أمته.

وعطف صفة ﴿ وخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾علىٰ صفة رسول الله تكميل وزيادة في التنويه بمقامه -ﷺ-، وإيماء إلىٰ أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله -تعالىٰ-؛ وهي إرادة ألا يكون إلا مثل الرسل، أو أفضل في جميع خصائصه، وفي الإضافة تنبيه إلىٰ عظيم مكانته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، ورفع لقدره.

واختتمت الآية بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ وهو تذييل حسن؛ إذ أظهر مقتضىٰ حكمته فيما قدره من الأقدار؛ فكونه خاتم النبيين اقتضىٰ ألا يكون له أبناء

بعد وفاته؛ لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوة لأجل ختم النبوة به، كان ذلك غضا فيه دون سائر الرسل، وذلك ما لا يريده الله به[1] .

وانظر إلىٰ الفاصلة التي خُتمت بها الآية الكريمة، حيث أشارت إلىٰ عموم علمه، وإحاطته بالأشياء كلها، وهذا متناسق تماما مع خاتمية محمد-ﷺ-، لصفحة النبيين، ورسالات السماء، من حيث إن الخاتمية تعني امتداد شريعته بأصولها وفروعها، علىٰ الساحة الزمنية الباقية من الدهر.

(١) يُراجع: البحر المحيط، (٨/ ٤٨٥)، والتحرير والتنوير، (٢٢/ ٤٤- ٤٥).

الصورة الثالثة: (في مقام معجزة الإسراء والمعراج).

-حادثة الإسراء.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾ [سورة الإسراء: ١].

سورة الإسراء مكية، وسميت الإسراء؛ لافتتاحها بقصة الإسراء من مكة إلىٰ القدس، وهي معجزة باهرة خص الله بها نبينا الكريم محمدا -ﷺ- تشريفا له، ولم يذكر خبر الإسراء في سورة غيرها، ومن مقاصد السورة:

-التنويه بمعجزة الإسراء؛ إشارة إلىٰ أن الله أعطىٰ النبي -ﷺ- من الفضائل ما لم يعط من قبله؛ فأسري به إلىٰ بيت المقدس، وأم بالأنبياء هناك بعد أن هجر وخرب، وفي هذا إشارة إلىٰ أن إعادة المسجد الأقصىٰ ستكون علىٰ يد أمة هذا الرسول -ﷺ- الذي أنكروا رسالته.

-الحديث عن بعض أحوال بني إسرائيل في الأرض المقدسة، وما كان منهم من فساد، وما حل بهم من العقوبة بسبب ذلك، وفيه إشارة بالوعيد لكل مكذب ومفسد، وتهديد لكفار مكة، ولكل خارج عن الإيمان بالله.

-الحديث عن المعجزة الكبرىٰ للنبي -ﷺ-، وهي القرآن الكريم، والبشارة لمن آمن به، والوعيد لمن كذب به، وتحدي الثقلين أن يأتوا بمثله، وفي ضمن ذلك إثبات نبوة محمد -ﷺ- وأن القرآن وحي من الله، وبيان فضله وفضل من أنزل عليه.

-إظهار جملة من فضائل شريعة الإسلام وحكمته، وتعليم المسلمين آداب المعاملة مع الله -ﷻ-، والمعاملة مع الوالدين وغيرهم من ذوي الحقوق، والأدب في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

-الحديث عن البعث والقدرة عليه، والرد علىٰ شبهات المشركين حوله بالحجة والبرهان، وترهيب المكذبين بذكر ما وقع للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك.

-التذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل علىٰ تفرد الله بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن الشريك واتخاذ الأبناء.

-التحذير من نزغات الشيطان وعداوته لآدم وذريته، واجتهاده في إغوائهم، وتكميل ذلك بالترهيب من متابعة الشيطان وطاعته.

-ذكر مجادلة المشركين في إثبات صدق النبي -ﷺ-؛ إذ لم يقنعوا بالقرآن معجزة خالدة، بل طلبوا إليه المعجزات المادية المحسوسة، التي يظنون بطلبها تعجيزه وغلبتهم له.

حيث يُمجد الله نفسه ويُعظم شأنه، لقدرته علىٰ ما لا يقدر عليه أحد سواه، لا إله غيره، ولا رب سواه، فهو الذي أسرىٰ بعبده محمد -ﷺ- زمنا من الليل بجسده وروحه، يقظة لا مناما، من المسجد الحرام بـ (مكة) إلىٰ المسجد الأقصىٰ بـ (بيت المقدس) الذي بارك الله حوله في الزروع والثمار وغير ذلك، وجعله محلا لكثير من الأنبياء؛ ليشاهد عجائب قدرة الله وأدلة وحدانيته.

إن الله -ﷻ- هو السميع لجميع الأصوات، البصير بكل مبصر، فيعطي كلا ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآية الكريمة من أسرار بلاغية:

إنَّ في نظم الآية من الأسرار والدقائق مايحتاج إلىٰ بيان؛ حيث الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما يجب تنزيه الله عنه؛ يؤذن بأن خبرا عجيبا يستقبله السامعون، دالا علىٰ عظيم القدرة من المتكلم، ورفيع منزلة المتحدث عنه.

وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ ما لا يخفىٰ من الدلالة علىٰ التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح، الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض(١).

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول الذي أسرىٰ دون الاسم العلم (الله)؛ للتنبيه علىٰ ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلىٰ وجه هذا التعجب والتنويه وسببه، ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم؛ فقد آمن به المسلمون، وأكبره المشركون(٢).

ومما يستوقفنا في الآية ذكر هنا الإسراء فقط، ولم يذكر العروج بالنبي -ﷺ- إلىٰ السماء وما كان فيه، مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة (النجم)؛ تقريبا للإسراء إلىٰ قبول السامعين(٣) .

والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد -ﷺ-، والإضافة للتشريف والتكريم.

ومن الرقائق القرآنية التعبير بلفظ (العبد)، للدلالة علىٰ أن مقام العبودية لله - تعالىٰ - هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه فىٰ هذا المقام لعبر به، وللإشارة - أيضا - إلىٰ تقرير هذه العبودية لله -

---

(١) يُراجع: إرشاد العقل السليم، (٥/ ١٥٤).

(٢) يُراجع: التحرير والتنوير، (١٥/ ١٠

(٣) يُراجع: تفسير أبي السعود، (٥/ ١٥٥).

تعالىٰ - وتأكيدها، حتىٰ لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية، كما التبسا في العقائد المسيحية، حيث ألهوا عيسىٰ -عليه السلام-، وألهوا أمه مريم، مع أنهما بريئان من ذلك.

وفي قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ذكر الليل مع أن الإسراء لا يكون إلا بالليل؛ لأنه أراد بقوله: ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وقصر زمن الإسراء - مع أن بين مكة وبيت المقدس مسيرة أربعين ليلة-؛ وذلك أن التنكير فيه قد دل علىٰ معنىٰ البعضية؛ فذكر الليل مع أن السرىٰ لا يكون إلا بالليل يحتمل أمرين؛ أولهما: أن الإسراء لما دل علىٰ أمرين -أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلا-، أريد إفراد أحدهما بالذكر؛ تثبيتا في نفس المخاطب، وتنبيها علىٰ أنه مقصود بالذكر.

وثانيهما: الإشارة بتنكير الليل إلىٰ تقليل مدته؛ لأن التنكير فيه قد دل علىٰ معنىٰ البعضية، وهذا بخلاف ما لو قيل: (أسرىٰ بعبده الليل)؛ فإن التركيب مع التعريف يفيد استغراق السير لجميع أجزاء الليل(١).

فلما كان الإسراء هو السير في الليل، وكان الشيء قد يطلق علىٰ جزء معناه بدلالة التضمين؛ نفىٰ هذا بقوله: ليلا، وليدل بتنوين التحقير علىٰ أن هذا الأمر الجليل كان في جزء يسير من الليل، وعلىٰ أنه -ﷺ- لم يحتج في الإسراء والعروج إلىٰ سدرة المنتهىٰ وسماع الكلام من العلي الأعلىٰ إلىٰ رياضة؛ بصيام ولا غيره، بل كان مهيئا لذلك متأهلا له، فأقامه -تعالىٰ من الفرش إلىٰ العرش(٢)).

---

(١) يُراجع: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٦٤٦)، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش (٥/ ٣٩٤.

(٢) يُراجع: نظم الدرر للبقاعي، (١١/ ٢٨٨-٢٨٩).

والإسراء هو السير في الليل، أي: قطع مسافات بأرض في ليل فهي رحلة أرضية تمت في الليل، فالحق- - أسرىٰ بعبده، فالفعل لله – تعالىٰ- وليس لمحمدٍ -ﷺ- ، ولو تأملنا قليلا سنجدُ أنّ الله -ﷻ- أسرىٰ بعبده إلىٰ مكان أقصىٰ في رحلة يضرب إليها أكباد الإبل شهرا وعاد بعد أن رأىٰ وتكلم وقال وقيل له وفراشه دافئ، فما هذه القوةُ العجيبة التي قامت بهذا الفعل في هذا الوقت؟ ومعلوم أن قطع المسافات يأخذ من الزمن علىٰ قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة.

أي: أن الزمن يتناسب تناسبا عكسيا مع القوة، فلو أردنا مثلا الذهاب إلىٰ المدينة المنورة سيختلف الزمن لو سرنا علىٰ الإقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة فكلّما زادت القوة قلّ الزمن، فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلىٰ الله – تعالىٰ-، فإذا كان الفعل من الله فلا زمنَ، أي فهي رحلة خلت من الزمن لأنك حين تنسب الفعل إلىٰ فاعله يجب أن تعطيه من الزمن علىٰ قدر قوة الفاعل(١).

وقوله: (ليلا) ظرف زمان لأسرىٰ.

وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ بيان لابتداء الإسراء وانتهائه.

أي: جل شأن الله -ﷻ- وتنزه عن كل نقص، حيث أسرىٰ بعبده محمد -ﷺ- في جزء من الليل، من المسجد الحرام الذي بمكة إلىٰ المسجد الأقصىٰ الذي بفلسطين.

(١) يُراجع: تفسير الشعراوي، ت: محمد متولي الشعراوي، (ص:٨٣١٢-٨٣١٣) الناشر: أخبار اليوم، د. ط.ت.

ووصف مسجد مكة بالحرام، لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه، ولا بصيد صيده، ولا بقطع شجره.

ووصف مسجد فلسطين بالأقصىٰ، لبعده عن المسجد الحرام، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للإبل في مدة شهر أو أكثر.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، أي: الأبعد، والمراد: بعده عن مكة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه علىٰ معجزة هذا الإسراء، وكونه خارقا للعادة؛ لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا﴾ حوله صفة للمسجد الأقصىٰ، وجيء في الصفة بالموصولية؛ لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة، حتىٰ كأن الموصوف مشتهر بالصلة عند السامعين، والمقصود: إفادة أنه مبارك حوله(١).

أي: جل شأن الله الذي أسرىٰ بعبده ليلا من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، الذي أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية.

أما البركات الدينية فمن مظاهرها: أن هذه الأرض التي حوله، جعلها الله – تَعالىٰ – مقراً لكثير من الأنبياء، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وداود وسليمان، وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ.

والالتفات من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلىٰ التكلم في: ﴿بَٰرَكْنَا﴾، ولنريه من آياتنا؛ لتعظيم ما ذكر؛ لأن فعل

(١) يُراجع: التحرير والتنوير (١٥/ ١٩)، والبحر المحيط، (٧/ ١٠)

العظيم يكون عظيما، لا سيما إذا عبر عنه بصيغة التعظيم، والنكتة العامة تنشيط السامعين(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه التفات إلىٰ الغيبة؛ لتربية المهابة، وهو وعيد من الله للكفار علىٰ تكذيبهم محمدا -ﷺ- في أمر الإسراء؛ فهي إشارة لطيفة بليغة إلىٰ ذلك، أي: هو السميع لما تقولون، البصير(٢)؛(لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلىٰ أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه علىٰ أسلوب واحد(٣) .

وموقع (إن) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ التوكيد والتعليل، كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها- أي: عدم عطفها عليها-، وهذه الجملة مشتملة علىٰ صيغة قصر بتعريف المسند باللام السميع، وبضمير الفصل (هو) قصرا مؤكدا، وهو قصر موصوف علىٰ صفة قصرا إضافيا للقلب (٤).

ذكر مبدأ الإسراء ونهايته بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أمران:

أحدهما: التنصيص علىٰ قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة؛ لأن كلا من الظرف -وهو ليلا- ومن المجرورين - من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ- قد تعلق بفعل أسرىٰ، فهو تعلق يقتضي المقارنة؛ ليعلم أنه من قبيل المعجزات.

((١يُراجع: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٦٤٨)، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش ٥/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) يُراجع: البحر المحيط، ٧/ ١١

((٣يُراجع: تفسير الكشاف، ١/ ٢٩.

(٤)يُراجع: تفسير ابن عاشور، ١٥/ ٢٢.

وثانيهما: الإيماء إلىٰ أن الله- تعالىٰ- يجعل هذا الإسراء رمزا إلىٰ أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، الصادر من المسجد الحرام إلىٰ ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس، ثم إلىٰ خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضا، فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام، وتفرعت في المسجد الأقصىٰ، ثم عادت إلىٰ المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلىٰ مكة؛ لأن كل سرىٰ يعقبه تأويب؛ وبذلك حصل رد العجز علىٰ الصدر، مما يؤكد المعنىٰ ويقرره، فالكلام إذا تكرر تقرر.

وتكمن جمالية رد العجز علىٰ الصدر في القرآن الكريم من خلال ما يتميّز به من ترابط دلالىٰ يكمن في دلالة أول الكلام علىٰ آخره، وارتباط آخره بأوله مما يضفي جمالية ورونق علىٰ المعنىٰ، كما أنه يضفي علىٰ المعنىٰ ثراء دلاليًا يوضحه ويقويه، وذلك لأن رد العجز علىٰ الصدر ليس تكراراً شكليًا لا قيمة فيه وإنما هو وسيلة لتقوية المعنىٰ وتوضيحه، فمن خلال التكرار الموجود في الآيات الكريمة تتكون نغمة رنانة لما وقع علىٰ النفس، كما أنّ هذا اللون البديعي يكتسب قيمته الفنية والجمالية في كونه يأتي عفو الخاطر ودون تكلف، يدعو إليه المعنىٰ ويقتضيه السياق فلا يغلب عليه التصنع(١).

ومن خلال هذا نجد أن رد العجز علىٰ الصدر في الآية السابقة جاء بدون تكلف، وحسب ما يقتضيه المقام، فالمستمع يتهيأ له أن هناك تكرارًا وإعادة ولكن ذلك التكرار هو السر فىٰ عذوبة الأسلوب وقوّة المعنىٰ ووضوحه.

---

(١) يُراجع: قطوف بلاغية، محمد أبو الشوارب وأحمد محمود المصري، ص١٩٥-١٩٦.

و التكرار " هو إعجاز من إعجازه، ووجه جديد من وجوه البلاغة، لم ينطق به من قبل القرآن لسان فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة، أما التكرار الذي وقع فيه القرآن فإنه كان في الموضع التي جاء فيه نغمًا جديداً من أنغام الحسن الرائع"(١).

وبتأمل هذه الآية ومكونات الصورة التامة للمعنىٰ مقارنًا ذلك بالمناسبة التي نزلت فيها تظهر إقامة الحجة علىٰ منكري الإسراء والمستغربين له ببرهان العقل ومقتضيات الحكمة والتفضل والتكريم وقد جمعت هذه المعاني كلها بألفاظ معدودة وما طوي في نظم هذه الآية من المعاني ما يفوق ذلك لو أمكنت رؤيته وبيانه.

فصار المعنىٰ المفهوم من الآية وأساليبها هكذا :

لقد تنزه عما تتوهمونه من العجز – وهو القادر علىٰ كل شيء – من أسرىٰ مصطحبًا عبده الأكمل محمداً –ﷺ– في ليلة واحدة من المسجد الحرام الذي تعرفون عظم فضيلته عند الله إلىٰ المسجد الأقصىٰ الذي بارك حوله الله العظيم بركة عظيمة مع بعد ما بينهما من المسافة ليريه ربه العظيم بعض الأمور الدالة دلالة بينة لا ريب فيها علىٰ كمال حكمته وكمال تدبيره في كل ما يفعل رؤية لا يمكن أن تقع لولا أن الله شاء أن يريها لحبيبه –ﷺ– لما علم فيه من الأهلية للإكرام بها ومن الفائدة من هذه الرؤية وآثارها فهو العليم الذي لا تخفىٰ عليه خافية قد سمع سبحانه وأبصر ذلك إذ هو السميع الذي لا يداني سمعه أحد البصير الذي لا يداني بصره أحد.

(١) يُراجع: الإعجاز في دراسات السابقين، الخطيب عبدالكريم، (ص:٣٩٥)، دار المعرفة – بيروت – لبنان (١٩٧٥م).

حادثة المعراج.

تكشف لنا سورة النجم الصورة الحقيقية عن حادثة المعراج، وتصف لنا ما وقع لرسول الله -ﷺ- في الرحلة السماوية من المعجزات الكبيرة، وصفها الله تعالىٰ بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [سورة النجم: ١٨]، وهذا يعلمنا أن للرسول -ﷺ- إسراء ومعراجا وهما في ليلة واحدة قبل الهجرة النبوية إلىٰ المدينة بنحو ثلاث سنوات أو سنة ونصف، فإن قصة الإسراء ذكرها الله -تعالىٰ- في سورة الإسراء، والمعراج خلد الله لنا ذكراه في سورة النجم، وهما من المعجزات العظيمة التي اختص بها النبي -ﷺ- لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء، كما لم يقع مثلها لأحد منهم، وهما من تفضيل الله لنبيه -ﷺ-.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النجم: ١٣-١٨].

وقوله- سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إشارة إلىٰ المرة الثانية التي رأىٰ فيها الرسول -ﷺ- جبريل علىٰ هيئته التي خلقه الله- تعالىٰ- عليها، وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج.

أي: والله لقد رأىٰ محمد -ﷺ- جبريل في صورته التي خلق عليها، حالة كونه نازلا من السماء نزلة أخرىٰ.

وقد جاء الإخبار عن هذه الرؤية بصيغة مؤكدة بلام القسم وبقد؛ للرد علىٰ المشركين الذين أنكروا ذلك، فكأنه- سبحانه- يقول لهم: لئن كنتم قد أنكرتم هذه الرؤية في الأرض، فإنه -ﷺ- لم يره في الأرض فقط، بل رآه رؤية أعظم من ذلك، وهي رؤيته له في السماء، حين كان مصاحبا له في رحلته ليلة الإسراء والمعراج.

قال الآلوسىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ أي: رأىٰ النبي -ﷺ- جبريل في صورته التي خلقه الله عليها نَزْلَةً أُخْرىٰ أي: مرة أخرىٰ، وهي فعلة من النزول، أقيمت مقام المرة، ونصبت نصبها علىٰ الظرفية، لأن أصل المرة مصدر مر يمر، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه، ولم يقل مرة بدل نزلة ليفيد أن الرؤية في هذه المرة، كانت بنزول ودنو، كالرؤية في المرة الأولىٰ، الدال عليها ما مر.

والمراد من الجملة القسمية، نفي الريبة والشك عن المرة الأخيرة، وكانت ليلة الإسراء(١).

وقوله: ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾بيان للمكان الذي تمت عنده الرؤية الثانية.

والسدرة في الأصل: تطلق علىٰ شجرة النّبق، وهو ثمر معروف في بلاد العرب.

والمنتهىٰ: اسم مكان، أو مصدر ميمي بمعنىٰ الانتهاء، وإضافة السدرة إليه، من باب إضافة الشيء إلىٰ مكانه، كما في قولهم: أشجار البستان.

أو من إضافة المحل إلىٰ الحال، كما في قولك: كتاب الفقه أو النحو.

وسمي هذا المكان بسدرة المنتهىٰ، لانتهاء علوم الخلائق عنده، وما وراءه لا يعلمه إلا الله- تعالىٰ-.

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرىٰ برسول الله -ﷺ- انتهىٰ به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السابعة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها.

---

(١) يُراجع: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، (٢٧/ ٥٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الرابعة ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥ م.

وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها[١].

ثم بين- سبحانه- ما يدل علىٰ شرف هذا المكان فقال: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾

أي: عند سدرة المنتهىٰ، جنة المأوىٰ.

أي: الجنة التي تأوىٰ وتسكن إليها أرواح المؤمنين الصادقين، الذين ﷺ ورضوا عنه.

ثم نوه- سبحانه- بما يحيط بذلك المكان من جلال وجمال لا تحيط العبارة بوصفه فقال:﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾

والظرف (إذ) في موضع الحال من ﴿ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾؛ لقصد الإشادة بما أحاط بذلك المكان من شرف وبهاء، أو هو متعلق بقوله: (رَآهُ).

أي: ولقد رأىٰ محمد -ﷺ- جبريل-عليه السلام- علىٰ هيئته التي خلقه الله عليها مرة أخرىٰ، عند ذلك المكان الجليل المسمىٰ بسدرة المنتهىٰ، حالة كون هذا المكان ينزل به ما ينزل، ويغشاه ما يغشاه من الفيوضات الربانية، والأنوار القدسية، والخيرات التي لا يحيط بها الوصف.

فهذا الإبهام في قوله (ما يَغْشىٰ) المقصود به التهويل والتعظيم والتكثير، لما يغشىٰ هذا المكان من خيرات وبركات.

وقوله- تعالىٰ- ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ بيان لما كان عليه النبي -ﷺ- من ثبات واطمئنان عند رؤيته لما أذن الله- تعالىٰ- له في رؤيته.

والزيغ: هو الميل عن حدود الاستقامة، والطغيان: تجاوز الحدود المشروعة.

---

(١) يُراجع: تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٥٢).

أي: ما مال بصر النبي -ﷺ- عما أذن الله- تعالىٰ- له في رؤيته، وما تجاوزه إلىٰ ما لم يؤذن له في رؤيته، بل كان بصره ﷺ منصبا علىٰ ما أبيح له النظر إليه.

فالمقصود من الآية الكريمة، الثناء علىٰ النبي -ﷺ-، ووصفه بما هو أهله من أدب وطاعة لخالقه-ﷻ-.

قال ابن كثير: قوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾قال ابن عباس: ما ذهب يمينا ولا شمالا، وما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة.

فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطىٰ، وما أحسن قول القائل:

(رأىٰ جنة المأوىٰ) وما فوقها ولو رأىٰ غيره ما قد رآه لتاها[1]

ثم عظم- سبحانه- من شأن ما أراه لنبيه - ﷺ - فقال: (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آياتِ رَبِّهِالْكُبْرىٰ).

وبالتأمل في فقه مناسبة الآية لما قبلها يتبين أنه لما كانوا قد أنكروا الإسراء إنكارا لم يقع لهم في غيره مثله، زاد في تأكيده علىٰ وجه يعم غيره فقال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ ﴾ أي أبصر بسبب ما أهلناه له من الرسالة إبصارا ساريا إلىٰ البواطن غير مقتصر علىٰ الظواهر ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ أي المحسن إليه بما لم يصل إليه أحد قبله ولا يصل إليه أحد بعده، ومن ادعىٰ ذلك فهو كافر ﴿ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ من ذلك ما رآه في السماوات من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام إشارة بكل شيء إلىٰ أمر دقيق جليل وحالة شريفة [2].

---

(١) يُراجع: السابق نفسه، (٤/ ٢٥٢).

(٢) يُراجع: نظم الدرر للبقاعي، (١٩/ ٥٤).

والكلام جواب لقسم محذوف، والآيات جمع آية، والمراد بها العجائب التي أطلع الله- تعالىٰ- عليها نبيه - ﷺ- في تلك الليلة، وهي ليلة الإسراء والمعراج.

والكبرىٰ: صفة لهذه الآيات، وحذف المرئي: لتفخيم أمره وتعظيمه.

أي: والله لقد رأىٰ محمد - ﷺ - في تلك الليلة أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف، وقد أكرمناه برؤيتها ليزداد يقينا علىٰ يقينه، وثباتا علىٰ ثباته، وقوة علىٰ قوته في تبليغ رسالتنا، وحمل أمانتنا.

هذا، وقد جرينا في تفسيرنا لهذه الآيات علىٰ الرأي الذي سار عليه المحققون من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكي رؤية النبي - ﷺ- لجبريل مرتين، كما سبق أن بينا، وأن الضمائر في تلك الآيات منها ما يرجع إلىٰ جبريل، ومنها ما يرجع إلىٰ الله- ﷻ-.

وقد أعدنا كل ضمير إلىٰ مرجعه الذي نراه مناسبا للمقام.

فمثلا: الضمير المنصوب في قوله- تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قلنا: إنه يعود إلىٰ جبريل. أي: أن الرسول - ﷺ- رأىٰ جبريل علىٰ هيئته التي خلقه الله عليها مرة أخرىٰ، غير المرة الأولىٰ التي كانت في أوائل بعثته -عليه السلام-.

ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير في هذه الآية وغيرها، يعود إلىٰ الله- تعالىٰ-، ويستدلون بذلك علىٰ أن الرسول - ﷺ- رأىٰ ربه.

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام الآلوسي فقال ما ملخصه: فالضمائر في (دنا) (وتدلىٰ) (وأوحىٰ) وكذلك الضمير المنصوب في (رآه) لله-ﷻ-.

واستدل بذلك مثبتو رؤية النبي -ﷺ- لله-ﷻ- كابن عباس وغيره.

وخالفت في ذلك عائشة-رضي الله عنها- فقد أخرج مسلم عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن، فقد أعظم علىٰ الله- تعالىٰ- الفرية.

قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب، ومن زعم أن محمدا رأىٰ ربه فقد أعظم علىٰ الله الفرية، فقلت: يا أم المؤمنين: ألم يقل الله- تعالىٰ-: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ؟) فقالت: أنا أول من سأل رسول الله -ﷺ- عن ذلك فقال: (لا، إنما هو جبريل، لم أره علىٰ صورته التي خلق عليها سوىٰ هاتين المرتين. رأيته منهبطًا من السماء ساداً ما بين السماء إلىٰ الأرض).

ثم قال الآلوسي: ولا يخفىٰ أن جواب الرسول -ﷺ- علىٰ عائشة، ظاهر في أن الضمير المنصوب في رَآهُ ليس راجعا إليه- تعالىٰ-، بل إلىٰ جبريل -عليه السلام[1].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها ترد علىٰ المشركين مزاعمهم، بأبلغ أسلوب.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآيات الكريمة من أسرار بلاغية:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، أي: إن كنتم تجحدون رؤيته جبريل في الأرض، فلقد رآه رؤية أعظم منها؛ إذ رآه في العالم العلوي مصاحبا، فهذا من الترقي في بيان مراتب الوحي، والعطف عطف قصة علىٰ قصة، ابتدئ بالأضعف، وعقب بالأقوىٰ؛ فتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق من أجل ما في هذا الخبر من الغرابة، من حيث هو قد رأىٰ جبريل، ومن حيث إنه عرج به إلىٰ السماء، ومن الأهمية من حيث هو دال علىٰ عظيم منزلة محمد -ﷺ-؛

(١) يُراجع: روح المعاني، (٢٧/ ٥٢)، وابن كثير، (٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩).

فضمير الرفع في (رآه) عائد إلىٰ (صاحبكم(النجم: ٢)، وضمير النصب عائد إلىٰ جبريل، وفي ذلك إشعار بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضا بنزول ودنو(١).

وانتصاب (نَزْلَةً) علىٰ نزع الخافض، أو علىٰ النيابة عن ظرف المكان، أو علىٰ حذف مضاف بتقدير: وقت نزلة أخرىٰ، فتكون نائبا عن ظرف الزمان.

ومن دقة الأسلوب القرآني التعبير بـ ﴿نَزْلَةً﴾ بدلًا من (مرة) لأن النزلة من النزول فقال ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي عند نزوله - ﷺ- رأىٰ جبريل وهذا دليل علىٰ أنه - ﷺ- صعد إلىٰ مكان أعلىٰ من الذي وصل إليه جبريل وفي رحلة عودته - ﷺ - رأىٰ جبريل عند نزوله وهذا مصداق الحديث أن جبريل – عليه السلام – قال للرسول – ﷺ- تقدم وقال لو تقدمتُ لاحترقت.

وقوله:﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ متعلق بـ (رآه)، وخصت بالذكر رؤيته عند سدرة المنتهىٰ؛ لعظيم شرف المكان بما حصل عنده من آيات ربه الكبرىٰ، ولأنها منتهىٰ العروج في مراتب الكرامة.

واختيار ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: المنتهىٰ هي آخر شيء، وآخر نقطة ومكانها عند جنّة المأوىٰ.

وإضافة ﴿سِدْرَةِ﴾ إلىٰ ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يجوز أن تكون إضافة بيانية، ويجوز كونها لتعريف (السدرة) بمكان ينتهي إليه لا يتجاوزه أحد؛ لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات.

أو إضافة (الملك) إلىٰ (المالك) علىٰ حذف الجار والمجرور، أي: سدرة المنتهىٰ إليه هو الله – – .

---

(١) يُراجع: التحرير والتنوير، (٢٧/ ١٠٠).

وبالنظر نلحظ أن قوله ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ إبهام للتفخيم الإجمالي، وتعظيم وتكثير لما يغشاها، وأنه تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة؛ فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة علىٰ عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنهها النعت، ولا يحيط بها الوصف، وتأخير ما يغشىٰ عن المفعول؛ للتشويق إليه(١).

ومن اللطائف العجيبة في النظم التعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية؛ استحضارا لصورتها البديعة، وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد.

ووقعت جملة ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ معترضة، وهي في معنىٰ جملة﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ إلىٰ آخرها، أي: رأىٰ جبريل رؤية لا خطأ فيها، ولا زيادة علىٰ ما وصف، أي: لا مبالغة.

وزاغ من الزيغان وهو الذهاب يمينًا وشمالاً، أما الطغيان فهو مجاوزة الحدّ والقدر، والتطلع إلىٰ ما ليس له؛ بمعنىٰ أنه – ﷺ– في رحلته ما مال بصره ولا جاوز قدره بل وقف في المكان الذي خُصص له وفي هذا مدح للرسول – ﷺ– فقد وقف بصره في المكان المحدد له مع أن المكان يستدعي أخذ البصر والالتفات.

ويظهر من خلال النظم أن قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ تذييل، أي: رأىٰ آيات غير سدرة المنتهىٰ، وجنة المأوىٰ، وما غشي السدرة من البهجة والجلال؛ رأىٰ من آيات الله الكبرىٰ، وفيه إيجاز بالحذف، أي: (والله لقد رأىٰ).

(١) يُراجع: تفسير أبي السعود، (٨/ ١٥٧).

و(مِن) يقال لها التبعيَّضية، أىْ: لم يرَ كل شيء لكن الرحلة كان لها منهجًا معينًا، وجاء بالكبرىٰ فيه تكريم آخر للرسول - ﷺ - أنه رأىٰ بعض الآيات الكبرىٰ.

وجاء لفظ (الكبرىٰ) صفة (آيات ربه)، والمرئي محذوف؛ لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول؛ لأن فيه تفخيما لآيات الله الكبرىٰ، وأن فيها ما رآه، وفيها ما لم يره (١).

ومن خلال ماتقدم يُمكن القول بأن الآيات أفادت هذه المعاني وأكثر منها لكن مع كمال البلاغة وإيجاز الكلام فسبحان من أعجزت بلاغة كلامه البلغاء.

(١) يُراجع: حاشية ابن المنير، (٤/ ٤٢١)، وحاشية الطيبي علىٰ الكشاف، (١٥/ ٩١)، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش، (٩ / ٣٥٠).

الصورة الرابعة: (في مقام معجزة شق صدر النبي – ﷺ-.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾[سورة الشرح: ١-٤].

ذكر- تعالىٰ- هنا ثلاث مسائل: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر.

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام، فهو استفهام تقريري لتقرير الإثبات، فقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمعنىٰ شرحنا علىٰ المبدأ المعروف، من أن نفي النفي إثبات، وذلك؛ لأن همزة الاستفهام وهي فيها معنىٰ النفي دخلت علىٰ لم وهي للنفي، فترافعا فبقي الفعل مثبتا، واختلف فقيل: هو شق الصدر سواء كان مرة أم أكثر، وغسله وملؤه إيمانا وحكمة، كما في رواية مالك بن صعصعة في ليلة الإسراء، ورواية أبي هريرة في غيرها.

وفيه كما في رواية أحمد: (أنه شق صدره، وأخرج منه الغل والحسد، في شيء كهيئة العلقة، وأدخلت الرأفة والرحمة).

وقيل: (شرح الصدر) إنما هو توسيعه للمعرفة والإيمان ومعرفة الحق، وجعل قلبه وعاء للحكمة، وفي البخاري عن ابن عباس: (شرح الله صدره للإسلام) وعند أبي كثير: نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا.

والذي يشهد له القرآن: أن الشرح هو الانشراح والارتياح، وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة.

والذي يظهر – والله تعالىٰ أعلم -: أن شرح الصدر الممتن به عليه -ﷺ- أوسع وأعم من ذلك، حتىٰ إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه، ومقابلته الإساءة بالإحسان، حتىٰ إنه ليسع العدو، كما يسع الصديق.

وفي شرح الصدر قولان:

الأول: ما روي أن جبريل -عليه السلام- أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علما وإيمانا ووضعه في صدره.

وطعن القاضي عياض في هذه الرواية من وجوه:

أحدها: أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته.

وثانيها: أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر.

ثالثها: أنه لا يصح أن يملأ القلب علما، بل الله- تعالىٰ- يخلق فيه العلوم.

والجواب عن الأول: أن تقويم المعجز علىٰ زمان البعثة جائز عندنا، وذلك هو المسمىٰ بالإرهاص، ومثله في حق الرسول -عليه السلام- كثير.

وأما الثاني والثالث: فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول -عليه السلام- علامة للقلب الذي يميل إلىٰ المعاصي، ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظبا علىٰ الطاعات محترزا عن السيئات، فكان ذلك كالعلامة للملائكة علىٰ كون صاحبه معصوما، وأيضا فلأن الله -تعالىٰ- يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والقول الثاني: أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلىٰ المعرفة والطاعة، ثم ذكروا فيه وجوها

أحدها: أنه -عليه السلام- لما بعث إلىٰ الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوىٰ الله، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغره عنده كل شيء احتمله من المشاق، وذلك بأن أخرج عن قلبه

جميع الهموم وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد، فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال، ولا يبالي بما يتوجه إليه من إيذائهم، حتىٰ صاروا في عينه دون الذباب لم يجبن خوفا من وعيدهم، ولم يمل إلىٰ ما لهم، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة.

وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت.

وثانيها: أنه انفتح صدره حتىٰ أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف به، والشرح التوسعة، ومعناه الإراحة من الهموم، والعرب تسمي الغم والهم ضيق صدر.

ونلحظ هنا عدة أسئلة:

الأول: لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب ؟

والجواب: لأن محل الوسوسة هو الصدر، فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب، وقال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصده الشيطان، فالشيطان يجيء إلىٰ الصدر الذي هو حصن القلب، فإذا وجد مسلكا أغار فيه ونزل جنده فيه، وبث فيه من الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ولم يقل ألم نشرح صدرك ؟ والجواب: من وجهين:

أحدهما: كأنه- تعالىٰ- يقول: لام بلام، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي فأنا أيضا جميع ما أفعله لأجلك.

وثانيها: أن فيها تنبيها علىٰ أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام، كأنه- تعالىٰ- قال: (إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي).

السؤال الثالث: لم قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ **ولم يقل: ألم أشرح ؟ والجواب: إن حملناه علىٰ نون التعظيم، فالمعنىٰ أن عظمة المنعم تدل علىٰ عظمة النعمة، فدل ذلك علىٰ أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلىٰ كنه جلالتها، وإن حملناه علىٰ نون الجميع، فالمعنىٰ كأنه – تعالىٰ- يقول: لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي، فكنت ترىٰ الملائكة حواليك وبين يديك حتىٰ يقوىٰ قلبك، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جوابا، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبنا فيهم، وانشراح صدرك ضيقا فيهم.**

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

استفهام تقريري علىٰ النفي، والمقصود التقرير علىٰ إثبات المنفي كما تقدم غير مرة، وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذىٰ قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم علىٰ دعوته العظيمة نشيطا غير ذي أسف ولا كمد.

-تأمُّلات فيما تضمَّنته الآيات المباركة من أسرار بلاغية:

وبالتأمل في النظم القرآني نرىٰ أنه حوىٰ العديد من الدقائق البلاغية حيث؛ افتتحت الآيات

بـ (ألم) وهو إنشاء طلبي فهمزة الاستفهام لطلب التصديق، وإدراك وقوع نسبة تامة من المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها بمعنىٰ إدراك موافقتها لما في الواقع أو عد موافقتها له، يكثر التصديق في الجمل الفعلية، ويقل في الجمل الاسمية، وقد ترد أيضا للتصور بالنسبة للمفرد(١).

والشرح حقيقته: فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، والتشريح في الطب، ويطلق علىٰ انفعال النفس بالرضا بالحال المتلبس بها، وظاهر كلام الأساس أن هذا إطلاق حقيقي.

ولعله راعى كثرة الاستعمال، أي: هو من المجاز الذي يساوي الحقيقة؛ لأن الظاهر أن الشرح الحقيقي خاص بشرح اللحم، وأن إطلاق الشرح علىٰ رضا النفس بالحال أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضيق وما تصرف منه علىٰ الإحساس بالحزن والكمد.

فالصدر مراد به الإحساس الباطني الجامع لمعنىٰ العقل والإدراك، والسر في جمال الاستعارة في القرآن هو بعد حسن تصويرها وإيضاحها للمعنىٰ وإيجازها في أدائه اختيار ألفاظها وحسن تركيبها ومراعاة حسن تشبيهها الذي بنيت عليه فألفاظ القرآن موحية صادقة في جعل السامع أو القارئ يحس بالمعنىٰ أكمل إحساس

---

(١) يُراجع: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي،٨٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (ط١٢) د. ت.

وأوفاه كما أنّها تصور المنظر للعين وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموسًا محسًا[١]) .

وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات وإعلامه برضا الله عنه وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر.

والللام في قوله: (لَكَ) لام التعليل، وهو يفيد تكريما للنبي-ﷺ- بأن الله فعل ذلك لأجله[٢]).

وفي ذكر الجار والمجرور(لك) قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق؛ فإنه لما ذكر فعل نشرح علم السامع أن ثم مشروحا، فلما وقع قوله: لك قوي الإبهام فازداد التشويق؛ لأن لك يفيد معنىٰ: شيئا لأجلك، فلما وقع بعده قوله: (صَدْرَكَ) تعين المشروح المترقب، فتمكن في الذهن كمال تمكن، وللإيذان من أول الأمر بأن الشرح من منافعه – عليه الصلاة والسلام – ومصالحه، مسارعة إلىٰ إدخال المسرة في قلبه – عليه الصلاة والسلام –، وكذا الكلام في ووضعنا عنك[٣]).

وقال تعالىٰ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴾﴿ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾

عندما تحمل همًا يؤلمك ظهرك وتتمطىٰ، وأثبتت الدراسات العلمية هذه المتلازمة، وقبلها قال الله تعالىٰ: ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ - ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴾ تأمل.

---

(١) يُراجع: من بلاغة القرآن، ص:٢١٧، والتصوير البياني، حفني محمد شرف، ص:٣٠٣-٣٠٤.

(٢) يُراجع: التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٠٩).

(٣) يُراجع: الكشاف، (٤/ ٧٧٠-٧٧١)، وفتح الرحمن للأنصاري، (ص: ٦١٦)، وتفسير أبي السعود (٩/ ١٧٢)، وتفسير ابن عاشور، (٣٠/ ٤٠٩-٤١٠).

ومما ينبغي التفطن إليه أن الوصل واضحٌ في قوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾

وبلاغة الوصل لاتتحقق إلا "بالواو" العاطفة فقط دون بقية حروف العطف لأن "الواو" لاتفيد إلا مجرد الربط وتشريك مابعدها لما قبلها في الحكم، بخلاف العطف بغيرها فإنه يفيد التشريك مع معنىٰ آخر، كالترتيب والتعقيب في " الفاء" وكالترتيب مع التراخي في "ثم" فالواو هي الأداة التي تخفي الحاجة إليها، ويحتاج العطف بها إلىٰ لطف في الفهم ودقة في الإدراك، بخلاف العطف بغيرها حيث يفيد مع التشريك معاني أخرىٰ كالترتيب مع التعقيب في "الفاء" وكالترتيب مع التراخي في "ثم" وهكذا باقي حروف العطف(١)).

وقال علماء البلاغة علىٰ الوصل بالواو بأنه أصعب أنواع الوصل إذ لايضع كل واحد منها موضعه إلا من أُولي في فهم كلام العرب فهمًا سليمًا وأعطىٰ في إدراك أسراره حظًا وافرًا، وهي أعظم أبوابها وأشكل أركانها وبها يُعرف حسن اللفظ والمعاني من عدمه(٢).

وقد اختلف العلماء والدارسون في وصف هذه الآية، بعضهم عدّها من المجاز والآخر استعارة تصريحية، ويطالعنا قول الشريف الرضي الذي يقول: "وهذا القول مجاز واستعارة؛ لأن النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– لا يجوز أن ينتهي عظم ذنبه إلىٰ حال إنقاض الظهر وهو صوت تقعقع العظام من ثقل الحمل؛ لأن هذا القول لا

(١) يُراجع: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص:١٩٨.

(٢) يُراجع: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ركن الدين محمد بن علىٰ الجرجاني، ص:١٠١، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط١ (١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م).

يكون إلا كناية عن الذنوب العظيمة والأفعال القبيحة وذلك غير جائز علىٰ الأنبياء – صلىٰ الله عليهم وسلم[١] "- .

في حين عدّ القاسمي الآية استعارة تمثيلية ويكون الوضع ترشيحًا لها[٢].

أما ابن عاشور فعدّها من المجاز العقلي؛ إذ يقول "وإسناد (انقض) إلىٰ الوزر مجاز عقلي، وتعديته إلىٰ الظهر تبع لتشبيه الشقة بالحمل، فالتركيب تمثيل لمتجشم المشاق الشديدة بالحمولة المثقلة بالأحمال تثقيلاً شديداً حتىٰ يسمع لعظام ظهرها فرقعة وصرير.

وهو تمثيل بديع؛ لأنه تشبيه مركب قابل لتفريق التشبيه علىٰ أجزائه[٣] ".

وبما أن الوزر "الذنب حملاً ثقيلاً يوضع عن النبي – ﷺ – ومثل به لأعباء الرسالة وأحمالها"[٤] ولأن الوزر في واحد من التأويلات هو الذنب[٥].

فالآية من الاستعارة التصريحية كما يرىٰ الدكتور محمد علي أبو حمدة إذ يقول "المشبه: الهم وما كان يعانيه الرسول – ﷺ – من الأمور المستعصية.

---

(١) يُراجع: تلخيص البيان في مجازات القرآن، تأليف: الشريف الرضي، تحقيق: عبد الغني حسن، ص: ٢٧٩، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة ط١، ١٩٩٥م.

(٢) يُراجع: محاسن التأويل ١٧/ ٦١٨٩.

(٣) يُراجع: التحرير والتنوير ٣٠/ ٤١٠.

(٤) يُراجع: التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، د/ محمود السيد حسن، ص: ٥١٤، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠١م.

(٥) يُراجع: النكت والعيون (تفسير الماوردي) تأليف: الماوردي؛ علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (٤/ ٤٧٥)، دار الكتب العلمية – مؤسسة الكتب الثقافية، د.ط.ت.

المشبه به: الوزر (وهو ما يحمله الإنسان) علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية والحمل شيء مادي محسوس ويفضل المعنوي في وضوح الدلالة" (١)، وهذا ما نطمئن إليه، فالاستعارة التصريحية تضمنها قوله (وزرك) ولو استبدلت هذه اللفظة بكلمة (ذنبك) لما أدت هذا الإيحاء ولذهب الحسن من الاستعارة.

فالشحنات الدلالية في النص القرآني التي تتمثل في هذه الاستعارة عملت علىٰ تحريك ذهن المتلقي إلىٰ فك رموز الألفاظ وإبداء التلاؤم المطلوب بين أجزاء الاستعارة، المستعار له والمستعار منه.

ونلحظ الفصل واضحًا في قوله ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾، وجاء الفصل هنا لشبه كمال الاتصال، لأن الآية الثانية جاءت بيانًا للأولىٰ، فوضحت كيفية الوزر، وحدث امتزاج معنوي بينهما، والسّجْعُ المتوازي حاصل بين الكلمتين الأخيرتين من السجعتين إذ اتفقا في الوزن وفي الحرف الأخير فيها ويعد هذا من المحسنات الجمالية اللفظية عند البلاغيين، إذ يجعل الكلام سهلًا متميزًا بالحسن والجمال(٢).

والسّجْعُ المتوازي ورد في الكلمات الأخيرة للآيات الأربعة الأولىٰ (صدرك – وزرك – ظهرك– ذكرك).

والسجع لا يحسن إلا إذا كان رصين التركيب خاليًا من التكرار في غير فائدة، يراوح مع المرسل ولهذا كان جمال القرآن اللغوي.

---

(١) يُراجع: من أساليب البيان في القرآن الكريم، تأليف: الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله ص:١٣٨، د.ط.ت.

((٢يُراجع: معارج التفكير ودقائق التدبر، تأليف: عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ١/ ٦٠٢، دار القلم، دمشق، د.ط.ت

فكلام الله – تعالىٰ- حَسُنَ فيه الجناس والتركيب (وهي تمثل سلاسة بناء الآيات القصار في هذه السورة وتتابعها بانسياب سهل علىٰ اللسان، لين في السمع، مؤثر في النفوس(١).

والضمائر في الآيات من قبيل الإحالة الخارجية؛ لأنها كلها تعود إلىٰ شخص واحد هو النبي -ﷺ-، ولم يرد له ذكر بالاسم الصريح، ولكن يعرف من القرائن الداخلية والخارجية أنه هو المقصود بالخطاب وقد أكسبت وحدة المرجعية هنا النص وحدة شكلية ودلالية أدت إلىٰ تماسكه وانسجامه.

تعقيب:

من ملامح الإعجاز البلاغي في الآيات.-

وباستعراض تلك النصوص التي جاءت في سياق العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها **يمكن أن نخلص من خلال تحليلنا البلاغي إلى ما يأتي:**

أولًا: أظهرت الآيات الكريمة مدىٰ أفضلية الأمة المحمدية علىٰ سائر الأمم.

ثانيًا: حاولت الكشف عن جمال النص والعلاقات التي تربط بين أجزائه دون الوقوف عند الجانب الجزئي للآية بل الوصول إلىٰ جوانب النص الشاملة في تفسير الآية القرآنية.

ثالثًا: اتضح دور المماثلة الصوتية في الإسهام في إثراء دلالات الآية، حيث كان لاختيار المفردات في الآيات معايير متعددة من حيث الدلالة علىٰ المعنىٰ دلالة فائقة الوضوح؛ ومن تلك المعايير: أنه قد تعبر المفردة بصفة وصوت حروفها عن المعنىٰ، وقد يُرَاعَىٰ في اختيارها وزن وصيغة محددة تلائم المعنىٰ.

---

(١) يُراجع: المصدر السابق نفسه ١/ ٦٠٢.

رابعًا: تكرار الصوت الواحد في الآية بحيث يواكب الحالة التي تريد الآية تصويرها.

خامسًا: اتضح دور الإيقاع الموسيقي في إثراء دلالات الآيات سواء عن طريق التكرار أم التقابل الإيقاعي، أم السجع المتوازي مما أدىٰ إلىٰ طاقة إيقاعية كبيرة.

"وظاهرة التكرار في القرآن الكريم ظاهرة لافتة للنظر في كلامنا، نحن البشر، عندما يفرض علينا موقف لغوي ووحدات لغوية بذاتها قد لا تسعفنا القريحة بغيرها سواء حدث لنا ذلك في مواقف الحياة العامة عندما تتفاعل اللغة بالمجتمع في خضم الواقع اليومي، أم حتىٰ إن حدث لنا ذلك في مواقف الإبداع الفني التي يعايش فيها الأديب الكلمة، ولكن الشيء الذي يلفت أن التكرار في القرآن تستريح له النفس، ويقبله الطبع، ويحسن المستمع له باستجابة يدرك عمقها، كما يدرك بقية المظاهر المحببة له(١)".

وقد جاءت مفردات الآيات فصيحة، خالصة مما يشوبها، فلا غرابة ولا غموض ولا استكراه، في جمل فصيحة التعبير، جميلة الإيقاع مُنغَّمة الفقرات، لا يُتوقَّف في فهم معناها؛ لوضوحه وصفائه، وتمكينه في النفوس، وقد جاءت " أطراف الآيات متآلفة، لذَّت علىٰ الآذان لتوافق فواصلها، ولين معاطفها " (٢). بـ " ألفاظ مسجوعة حلوة المذاق، رطبة طنَّانة صافية علىٰ السَّماع، حُلوة طيبة رنَّانة تشتاق إلىٰ سماعها

(١) يُراجع: ظواهر قرآنية في الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين، البدراوي زهران، (ص: ٣٧)، ط٢، دار المعارف، القاهرة (١٩٩٣م).

(٢) يُراجع: الطراز ٣/ ٢٣.

الأنفس، ويُلذُّ سماعها علىٰ الأذان " [١]، لاشك في أنَّ حلاوة المذاق وصف عام للقرآن الكريم كُلِّه، وليس خاصًا بموضع فيه دون آخر.

وبالجملة فقد أسهمت كل هذه التعبيرات البلاغية في التأكيد علىٰ العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها.

[١] يُراجع: السابق ٣/ ٢١.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيد فضله وإحسانه والصلاة والسلام علي رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعلىٰ آله وصحابته ومن اهتدي بهديه وسار علىٰ نهجه إلىٰ يوم القيامة.

فبعد هذه الرحلة التَّأَمُّلية التحليلية من وجهة نظر بلاغية،في هذا البحث المتواضع الذي جاء بعنوان (من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية في ضوء النظم القرآني. دراسة بلاغية تحليلية تأملية) **وقد خلصت في نهايته إلى عدد من النتائج منها:**

١- حفل القرآن الكريم بالعديد من النصوص التي تحدثت عن العطايا الربانية للأمة المحمدية، وكشفت الآيات – محل الدراسة- عن الخصائص التي اختصت بها الأمة المحمدية في شريعتها وكتابها، وذاتها، ونبيها، وأفضليتها علىٰ سائر الأمم.

٢- أبان النص القرآني مدىٰ رحمة الله- تعالىٰ- بعباده، وتخفيفه عنهم.

٣- اليسر، والعسر من حيث المعاني السياقية في القرآن الكريم؛ تأتي مختلفة علىٰ حسب السياقات المتنوعة.

٤- ظهر من خلال التحليل والتأمل أن معاني (الذِّكر) وصوره في القرآن الكريم كثيرة ثرية تقوي استعماله في الآية أكثر من غيره من أسماء القرآن الكريم، وهو اللفظ المناسب والأقوىٰ لسياق الآية – موضع الدراسة – ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[سورة الحجر: ٩]..، ويناسب كلمة ﴿ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الدالة علىٰ حفظ القرآن الكريم.

٥- عند تأمل سياقات الاصطفاء والاجتباء والاختيار نجد أن الاصطفاء من

أفعال الله – تعالىٰ– وحده، وتكون غالبًا في حق الأنبياء، وهو بمعنىٰ انتقاء صفو الشيء وخالصه.

٦- أثبتت الدراسة أن لكل عطية من هذه العطايا طابعًا بلاغيًا خاصًا يبرزها، ويكشف عنها، وجاء متناغمًا مع السياق، والمقام الذي ورد فيه.

٧- بدت الآيات المذكورة مترعة بالظواهر البلاغية التي احتضنت المعاني من مجازٍ، واستعارة، وكناية، وسَجْعٍ تكاملت في تعبيرات قرآنية لأرفع درجات البلاغة من غاية الحسن والتصوير، ولاسيما الاستعارة القرآنية باختيار كلمة منتقاة مختارة لتحقيق روعة النظم.

٨- كشف البحث عن حسن نسق الآيات، حيث جاءت جملُها مرتبة ترتيبًا حسنًا، خاليًا من عيوب النظم.

٩- كانت المعاني واضحة بمطابقة مقتضىٰ الحال، وأثرت في القلوب والعقول.

١٠- ظهر من خلال البحث ثراء المفردة القرآنية وغناها بالكثير من الدلالات، وإبراز خصائص الأسلوب القرآني المعجز، وظهرت جملة صلة الموصول كمظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، لما تؤديه من دور في النظم القرآني لا يسد مسده.

١١- تنوعت الأساليب الإنشائية في الآيات – محل الدراسة- بين القصر، والنهي، والاستفهام، والالتفات.

١٢- بدا أسلوب القصر جليًا في بعض آيات الدراسة، وأسهم بقوة في تأكيد صور العطايا الربانية للأمة المحمدية.

١٣- برز فن الاستهلال في افتتاحية الآيات الكريمة للربط بين الأفكار والصور.

١٤- تكرار صوت الراء، والشين، والنون، والكاف في النظم القرآني.

١٥- أبان البحث التلاؤم في الفاصلة بين الآيات، ومراعاة الجمال التناسقي، وأن التقسيم فن بياني عربي اختص به الكلام العربي البديع متمثلا في أرفع مستوياته الإعجازية في التعبير القرآني.

- أهم التوصيات

وأما أهم التوصيات التي أوصي بها، فهي ما يأتي:

١- الاهتمام بدراسة القرآن الكريم، وخاصة صور العطايا الربانية للأمة المحمدية التي ورد ذكرها فيه، وتحليلها؛ لإبراز الإعجاز القرآني فيها.

٢- مواصلة البحث في مواطن العطايا الربانية للأمة المحمدية بتناول باقي الصور، حيث إنني اقتصرت في بحثي هذا علىٰ العطايا الربانية للأمة المحمدية في شريعتها، وكتابها، وذاتها، ونبيها، فهي لاتزال في حاجة إلىٰ التنقيب عنها بتحليل ما فيها من ألوان بلاغية متعددة.

وبهذا أكون قد وصلت إلىٰ نهاية البحث ولا أقصد بنهايته أنني قد أغلقت الباب علىٰ هذا الموضوع أمام الباحثين، بل الباب مفتوح لمن أراد المزيد، والله أسأل أن يلبس بحثي ثوب القبول، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، فإنه أفضل مأمول، وأكرم مسئول.

هذا وبالله التوفيق، ومنه العون والحول، فلا عون إلا بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم احفظ هذه الأمة.

اللهم أنعم عليها بالأمن والأمان.

اللهم أكرمها بالسمو وعلو الشأن.

اللهم لا تسلط عليها أعداءها والشيطان.

اللهم خذ بيدها إلىٰ الحق والإيمان.

اللهم اجمع قلوب أهلها علىٰ الطاعة والقرآن.

اللهم نسألك أن تحفظ أمة محمد – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –.

اللهم وحد كلمتها ويسر أمرها علىٰ المحبة والوئام.

آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، و- صلى الله وسلم-، وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

• الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين السيوطي، (ج٢)، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٦ هـ.

• إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطاء، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة. د.ط.ت.

• أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت: محمود شاكر) ط٢.مكتبة الخانجي(١٩٩١م).

• الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ركن الدين محمد بن علىٰ الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ (١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م).

• الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر. د.ط.ت.

• الإعجاز في دراسات السابقين، الخطيب عبدالكريم، دار المعرفة – بيروت – لبنان، (١٩٧٥م).

• إعراب القرآن، أبو جعفر محمد بن إسماعيل النحاس، ج٢، ط٦، عالم الكتب، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م).

• إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق، ط:(١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م).

• أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٦٠م)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – (١٤١٨ هـ).

• البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

• بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المؤلف: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بـ (بملك العلماء) (ت ٥٨٧ هـ)، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٢٨ هـ، د.ط.ت.

• تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضىٰ الحسيني الزَّبيدي، (١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م).

• تأويل مشكل القرآن، تأليف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ط.ت.

• الترادف في القرآن بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دمشق، دار الفكر د.ط، ١٩٩٧م.

• التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، د/ محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث ٢٠٠١م.

• تفسير التحرير والتنوير للعلامة/ الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م.

• تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي، المعروف بالخازن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. د.ط.ت.

• تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، الناشر: أخبار اليوم، د.ط.ت.

• تفسير العثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، ط٣، ١٤٢٤ هـ.

• تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤ هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

• تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٩م.

• تفسير المراغي، أحمد مصطفي المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط: الأولىٰ (١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م).

• التفسير المنير، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان دار الفكر – دمشق – سورية، ط: الأولىٰ ١٤١١ هـ– ١٩٩١م.

• التفسير الوسيط، د.وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢ هـ.

• التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

• تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط: السابعة: ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

• تلخيص البيان في مجازات القرآن، تأليف: الشريف الرضي، تحقيق: عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة ط١، ١٩٩٥م.

• تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفي: ٣٧٠ هـ،ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠١م.

• تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ (١٣٦٥ هـ =١٩٤٦م) بتصرف.

• جامع البيان عن تأويل القرآن، ت: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

• الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبدالرازق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م.

• جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (ط١٢) د.ت.

• حاشية شيخ زاده علىٰ تفسير القاضي البيضاوي – ط دار صادر – بيروت. د.ط.ت.

• الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د/ غانم قدوري الحمد، دار عمار، الطبعة الثانية- ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م.

• دراسات قرآنية في جزء عم، محمود أحمد نخلة، دار العلوم العربية للطباعة والنشر (١٩٨٩م).

• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

• سر صناعة الإعراب، تأليف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولي ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠م.

• شرح الخرشي علىٰ مختصر خليل، المؤلف: أبو عبد الله محمد الخرشي، ج٧، الناشر: المطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق مصر، الطبعة: الثانية، ١٣١٧ هـ.

• الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع، المؤلف: العثيمين، محمد بن صالح، المحقق: عمر بن سليمان الحفيان، الناشر: دار ابن الجوزي، ١٤٢٢ ه- ٢٠٠٢م.

• الصبغ البديعي، د/ أحمد إبراهيم موسىٰ، (دار الكتاب العربي، القاهرة) (١٣١٨ هـ = ١٩٦٩م).

• الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيىٰ بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت ٧٤٥ ه)، المكتبة العنصرية – بيروت (١٤٢٣ه).

• ظواهر قرآنية في الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين، البدراوي زهران، ط٢، دار المعارف، القاهرة (١٩٩٣م).

• عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ت: عبد الحميد هنداوي المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣ ه – ٢٠٠٣ م.

• فنون التصوير البياني، د/ توفيق الفيل،، مكتبة الآداب، ١٩٩٨م.

• في الصوتيات العربية والغربية، د/ مصطفىٰ بو عناني، الطبعة الأولىٰ، عالم الكتب الحديث ٢٠١٠م..

• الكتاب، تأليف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسيبويه (ت ١٨٠ ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م.

• كتاب شرح منظومة القواعد الفقهية للسعدي – أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفي: ١٣٧٦ ه)، الجزء الثاني، طبعة دار الميمان ١٤٣١ ه.

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، طبع دار الفكر العربي (١٤٠٣ ه = ١٩٨٣م).

• لسان العرب لابن منظور– ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ ه – ١٩٩٥ م.

• لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور / فاضل صالح السَّامرائي – الطبعة الخامسة / دار عمَّار للنشر والتوزيع – عمَّان – (١٤٣٠ ه – ٢٠٠٩ م).

• المبدع في شرح المقنع،المؤلف: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (ت ٨٨٤ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

• المبسوط، المؤلف: السرخسي شمس الدين، ج١٢، دار المعرفة – بيروت (١٤٠٩ هـ =١٩٨٩م).

• محاسن التأويل، ت: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٨ ه.

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧م.

• مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦ هـ) ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

• مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، بيروت، دار القلم ١٩٨٦م.

• المختصر في معاني أسماء الله الحسنىٰ، أستاذ محمود سامي بك، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة حجازي، القاهرة. د.ط.ت.

• المطلع علىٰ ألفاظ المقنع، المؤلف: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، أبو عبد الله، شمس الدين (ت ٧٠٩ هـ)، المحقق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

• معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق، الجزء الأول، د.ط.ت.

• معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠ هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة: الرابعة،(١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

• المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفىٰ ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية. د.ط.ت.

• معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل، بيروت. د.ط.ت.

• مفاتيح الغيب، ت: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

• المفردات في غريب القرآن، لأبي حاتم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ،١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

• ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توفية المتشابه من اللفظ في آيات التنزيل، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب. د.ط.ت.

• من أساليب البيان في القرآن الكريم، تأليف: الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله د.ط.ت.

• من أسرار التعبير القرآني. دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة (١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م).

• من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت ١٣٨٤ هـ)، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة (٢٠٠٥م).

• مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (ت ٩٥٤ هـ) الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

• موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم: دراسة ووصف وتقويم وأمثلة (رسالة دكتوراة)، د. أحمد حمد محسن الجبوري، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٣٦ هـ.

• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الأندلس للنشر والتوزيع – جدة، ط: الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

• النكت والعيون (تفسير الماوردي) تأليف: الماوردي؛ علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – مؤسسة الكتب الثقافية، د.ط.ت.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص البحث.	٣٠٢
٢.	المقدمة.	٣٠٦
٣.	**التمهيد:** مكانة العطايا الربانية للأمة المحمدية في القرآن الكريم.	٣١٠
٤.	أولًا: تعريف العطية في اللغة، والاصطلاح.	٣١٠
٥.	ثانيًا: تعريف الأمة في اللغة، والاصطلاح.	٣١١
٦.	ثالثًا: تعريف الأمة المحمدية.	٣١١
٧.	رابعًا: من صور العطايا الربانية للأمة المحمدية.	٣١٣
٨.	**المبحث الأول:** من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في الشريعة، والكتاب في ضوء النظم القرآني.	٣١٧
٩.	**المبحث الثاني:** من بلاغة العطايا الربانية للأمة المحمدية في ذاتها، ونبيها في ضوء النظم القرآني.	٣٧١
١٠.	الخاتمة.	٤٢٣
١١.	ثبت المصادر والمراجع.	٤٢٧
١٢.	فهرس الموضوعات.	٤٣٥